طالب عبدالعزيز

قبل خراب البصرة

كتاب الماء والنخل

قبل خراب البصرة

كتاب الماء والنخل

(... والتقى السَّروجيُّ بمسجِده، وموضعِ تعبّده، زاهدا... فوجده متعبدا، يُصلّي بين مُريديهِ وأتباعه، حتى أكملَ الخمس، وصارَ اليومُ أمسْ...)

إلى عبدالأمير عبود..

الخصيبي، الذي عشق الأمل

طالب عبدالعزيز

قبل خراب البصرة

كتاب الماء والنخل



دار آراس للطباعة والنشر

اربيل - اقليم كردستان العراق

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الاكتروني aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
تأسست دار آراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

طالب عبدالعزيز
قبل خراب البصرة - كتاب ماء والنخل
منشورات آراس رقم: ١٢٣٧
الطبعة الأولى ٢٠١٢
كمية الطبع: ٦٠٠ نسخة
مطبعة آراس - اربيل
رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٢٠٣ - ٢٠١٢
الاخراج الداخلي: كارزان عبدالحميد
الغلاف: آراس أكرم
التصحيح: أوميد أحمد البناء

ردمك:
ISBN: 978-9933-487-09-6

توطئة

يُطلق الخصيبيّون (سكان أبي الخصيب في البصرة) كلمة باب على الأرض المحصورة بين نهرين، وما أكثرها في بلدتهم، فيما يطلق عليها، أهلُ الفاو، سكان أقصى الجنوب مفردة (حوز)، التي يجمعونها (أحواز)، والتي منها الأهواز، الإقليم العربي في إيران، ويَجمعُ أهلُ أبي الخصيب مفردة باب جمعا مختلفاً عن جموع غيرهم، فهم يقولون (بيبان)، على خلاف القاعدة اللغوية، (باب – أبواب)، كأنهم يشيرون في ذلك إلى كثرتها عندهم، أو هي الأيسر بأفواههم في اللفظ، كما يقول أحد رواتهم، لكن المكان المحصور بين النخل والماء والبر مفتوح على الجهات كلها هنا، فلِمَ الأبواب– البيبان، ألأن الماء يخربها، أم لأنها تخرب الماء؟

هناك رواية تقول بأن القرى والقصبات، التي تتوسط النخل والأنهار، كانت تُغلق في الليل ببوابات من جذوع وخشب، يقف على حراستها فلاحون، سمر غلاظ أشداء، أسلحتهم القضبان والعصي وآلات الزراعة، (المنجل والمسحاة والشبل والعكفة والطبر والمسنون...) كان هذا، قبل اكتشاف البارود، وقبل استحداث آلة القتل عن بعد.

ومنذ أن إحتفر أبو الخصيب مرزوق، قائد صاحب الزنج، في حربه ضد الدولة العباسية، سنة ١٢٦ للهجرة نهره المسمى بإسمه حتى اليوم، حفرت الناس أنهارها، وصار بمقدور الجميع ري بساتينهم وقلوبهم الضمئة للماء والحرية والانعتاق، وكذلك سقي حكايات النخيل والأعناب والدواب والبرسيم والباقلاء واللوبياء والفجل والكرفس والمعدنوس... ولأن الماء ينحسر في الجَزْر، بعد طغيانه في المد، مطالع الشهور وأنصافها، ويقل أو يشحُ في غير ذلك. إبتدع الخصيبيون البيبان، فأقاموها على أنهارهم، عند الصدور، ولما كان الطين لا يقوى على الاحتفاظ بالماء طويلا، فقد كوّفوه بالجذوع والسعف والقصب، بتعبير محمد علي إسماعيل، ولما كانت

الجذوع وسواها تُنخرُ بالجرذان وتَباد بالماء، حملّوا الطابوق أمانة حِفظ الماء، فشيدوا البيبان منه، وتفننوا بتصريفه ساعة دخوله وخروجه، وحين عثروا على صفائح الحديد في سكراب المستعمرين، بالشعيبة والدريهمية، أو قرب محطة القطار بالمعقل استعانوا بها، وهكذا كانت البيبان في أبي الخصيب، (طاسه ببطن طاسه، ويشط العرب ركاسة).

وحين يقولون لك كلمة باب، ويردفونها بأخرى، معرّفة بأل أو بدونها، كأن يقولوا: باب الهوى، أو باب ميدان، يتوجب عليك أن تسأل: مَنْ التي كانت على الماء؟ ومن التي كانت على اليابسة؟، تُرى كيف توضع الباب على الهواء؟ وأيّ ميدان يغلقونه بباب؟ ميدان الحرب أم ميدان اللعب؟ أم هو أسم لمالك أرض؟ ومن يفتح الأبواب هذه؟، لمن؟ إذا كانت تنصب على الريح أو على الماء؟ الباب إذن حكاية من حكايات البيبان الكثيرة في البصرة.

يعدد ياسين صالح العبُّود (أبو صلاح) بيبان أبي الخصيب فلا يقف عند رقم بذاته، فهو يقول: باب طويل، باب العريض، باب سليمان، باب رمانة، باب دباغ، باب جلاب، باب ميدان، باب الهوى، باب السرور، باب الديرة، باب الحلاوي، باب النزيلة، باب خلف، باب آل إبراهيم، باب البريم........، ثم يستدرك فيقول: يُقيم الخصيبيون بابا على كل معنى من معاني الحياة، هم يُقيمونها ليحتفظوا بكل بهجة، بكل حزن، لعلهم كانوا يفتحونها لتدخل المسرات والأحزان والمنايا، بيبانهم لا تُعد، هل كنتُ أمام الباب، هل كنتُ خلفه، مَنْ يدري..؟

ولأننا ندخل، كان علينا أن نطرق، لكن البيبان كثيرة هنا، هل نطرق بيبان الماء أم الهواء، قال كتاب الماء اطرقوا باب الهواء أولا، هو أيسر لكم، ثم عرِّجوا علي، فاطرقوا بابي، أنا الماء، بابٌ لكل الحكايات، ومسرّة كل المسرّات.. وحين هممنا بطرقه، صاح مزلاج على النهر.. بباب السعمران: عندي حزورة (شنو شنو يوكف على رجل ويصيح صيحة العجل؟) قلنا: الباب..!، فأُذِنَ لنا.

باب حكاية أنهار

كما في كلّ الجنان المحروسة بالماء، لا يخلو بستان في أبي الخصيب من مسنّاة أو (شريعة، مسناية) بلفظهم، فهي ميضأة وحمّام ومغتسل العائلة، ذاك الزمان. ولأنها حاجتهم الدائمة فقد برع البصريون في بنائها وتزهيرها، وفي إعطائها جمالاً مميزا، كما تفنّنوا في جعلها مكاناً للسرور والبهجة، وقضاء الأماسي، تبعاً لإمكانية صاحبها.

الميسور بينهم يبنيها بالآجر والإسمنت، ويكثر من عدد درجاتها (باياتها) حتى يكون بإستطاعة مستخدمها النزول إلى الماء، ساعات الجزر. ومنهم من يصعّد بها إلى فِناء منزله، الذي عادة ما يشيّده خلفها، ومنهم من يجعل على جانبيها دعامتين، يتفنن في إبراز واجهاتها، وكان البعض يزيّن مدخلها بنصب وتماثيل منحوتة من المرمر أو السمنت أو الآجر، وذهب بعضهم أبعد من ذلك فجلب من أوروبا تماثيل وأصنام من الحديد، معمولة على هيئة أسود وفيلة أو شخوص حراسة وغير ذلك.

أما فقراؤهم فكانوا يبنونها (شرايعهم) من الجذوع وفروع الأشجار، ويوثقونها بالحبال والأوتاد وقطع الحجر والصوان، لتغطس، فلا يجرفها الماء، وهذه لا تخلو من جمال طبعا، فهم يزرعون على جانبها ورود الرازقي والجوري، المحمدي منه والسلطاني أو أشجار التوت أو السدر، لينمو تحتها القصب الفارسي والدفلى، بزهوره الكثيرة، التي تمنح المكان جمالاً أخّاذا، أيام الربيع خاصة.

ومنذ أن أنبتهم الله هنا، صار للنهر في نفوسهم، وقائع لا تنتهي، فهو الحياة لديهم، وهو البصرة وهو البصريون، امتزجت حياتهم بحياته، وما زلوا يُهرعون إليه في الأحزان والمسرّات معا، تشكلت ملامحهم به، وخلاله تسرّبت همومهم، فهم يصبحون على مَدّه، وينامون على جَزره، منذ

متحدثهم الأول، خالد بن صفوان حتى آخر بدر، شاعر، سياب في دفاترهم.

وإذا كانت المدنية تنتزع بأذرعها المتعددة، كل يوم ثوباً من أثواب الحياة (الفطرة، الناموس)، وتأتي بأذرعها تلك، على كل ما هو جميل وكرنفالي، لتحوّل المعاني الصادقة إلى معان، في أرقى أحوالها، أنها لا تخلو من الصدق، ظلّ النهر مصدراً لبهجة وفرح وسعادة هؤلاء. وحين كان الماء ينتزع إعجابهم رقراقاً منسابا، تتكسر موجاته بين ضفتين خضراوين، قادماً من الأقاصي الجبلية الشاهقة، ماراً بأناس لا تجمعهم وإياهم طرائق مشتركة، غير إنسانيتهم حسب، صار يصل إليهم معلباً مرة، ومرة بحنفيات، لونها مثل لون الذهب، أو يطفح في أوان بيضاء، بلورية، ناصعة، ليس كما كان لهم ذات يوم، حين كانوا يمدّون له أكفهم فيغترفُون منه ما شاءوا، غير منتظرين قبوله أو رفضه. أنّى شاؤوا من أمامهم أو من خلفهم، يدخلون فيه، يرتعونه مثل خراف عطشى، مثل بلابل لاكت تمرا كثيرا، مثلما خلقهم الله له. لكنه، وفي السنوات الأخيرة، من أعمارهم غيّر عادته إليهم، صار يتأخر ساعة وينقطع أخرى، ثم يأتي مثل خيط مرتبك،



قطان نداف

زعلان، من يدري لعله أخفق في الوصول إليهم، ربما حجبه كيس من القناني الفارغة، حوت كبيرعند صدر النهر.

يقول راوي الحكايات، الذي وقف طويلا على النهر اليوم : رغم كل الإجراءات التي تفخر المدنية بتقديمها للناس، إلا أنها عاجزة عن تقديم متعة كالتي يقدّمها النهر لنا، كما هو، كما أراد لنفسه. أو كما أراده الله لنا.

ويُردف: علينا إذن، أن نتأمل نهراً كالعشار– الذي تبكيه الناس اليوم– هذا الذي كان يخترق المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ليشطرها نصفين، ظل وشمس، حتى يصل أبعد نقطة فيها، منازل متراصّة، وأسواق كبيرة، أشجار فاكهة ونخيل، ورود بيضاء وملونة، عشّاريات مفروشة بساتان وردي، وسائد طُرّزت عليها قصائد من ألف ليلة وليلة. شهرزادات وسندبادات، كتاب لمعلّم صبيان، ضئيل، تركه تلامذته وتسلقوا الغصون، فلاّح يشماغه خصيبي، يطوي الظهيرة عائدا، وتتبعه بقراته ونعاجه، ما الذي يغرينا في الجنة أكثر..؟

ويروي أحدُهم، من غير البصريين، أنّه زار صديقاً له في أبي الخصيب (الحكاية ليست ضمن متن كتابنا طبعا) في أحد أيام الربيع، البيت من قصب وطين وجريد، وسط بستان على شط العرب، كان الضيفُ قد قدِمَ من جهة الشط، بقاربٍ عشّاري (كالذي ذكرنا) صعد المسناة (الشريعة) التي جلَتها الشمس، وصَقَلَها الموجُ بطغيانه الأبدي على درجاتها الآجر، فمنحها الزمن أديماً معصفراً زاهيا، شجرتا توت عملاقتان، تعاضدت أغصانهما على مدخل الشريعة، التوت أحمر وأبيض، يملأ باحة المسنّاة، وحين هبت نسمة خفيفة، سقط بعض منه في جوف القارب، عند إقترابه من الجرف، ينمرد التوت تحت أقدام الضيف، فيصطبغ المكان، الماء بتردداه على الآجر يغسل التوت فيحمرّ الأفق. ماء أحمر، وشمس حمراء تتملص من الغصون الخضر، الأرض مرشوشة بماء المد، تسمع فرحها بين

أقدامك، عطر يأتيك من حيث تحتسب، أريكة من قصب فارسي بانتظارك، أنت القادم التعبان، وسجّادة من عشب، قمرية عنب تحجب عنك زرقة الغربة، وفسائل لم تثمر بعد، لكنك تجد الرطب في عذوقها، مدَّ يدك، هي ستثمر بعد سنة، السنة ليست هنا كالسنين، حملان صغيران يقرضان ما ظل من عتمة الأفق، وبقرة تثغو في الزريبة، ربما تأخر الموعد قليلا، لم لا؟ قد يحدث ذلك في كتب الحكايات.

يجلس الضيف، غير مستريح، فهو مرتبك، لا تسعه أريكته، وبادية عليه إمارة الذهول، عكّازه ملقىً بين يديه، عيناه شاردتان لا يردّ على تحية مضيّفه، لكنه قال متأخراً : (عذراً يا جماعة، لم أمت بعد كي أكون في الجنة..). فيضحك مضيفه، وتنتهي الحكاية، هل يضيف الراوي شيئا آخر؟ ربما..فالكتاب لما ينته بعد، وهذا النهر ينجب الكثير من الحكايات.



نخيل وظلال

وإذا كان الضيف هبط جنة الخصيبي، من شريعته، التي بناها من الجذوع والاشجار، وأقام اليوم أواليومين بين الظلال والماء، فقد مر الزمن

سريعا، الساعات تركض في أبي الخصيب، والمكان يعظم وقت الولائم الكبيرة، فترى الضيوف يهبطون مدرجاتها جماعات جماعات، للوضوء أو للغسل، بعد الطعام أو للتمتع بتأتأة الطبيعة مع بعضها، أو لرائحة الماء وقت المد، حيث تمتزج رائحة الطلع بمذيب الغرين، بزفرة السمك المتقلب سرورا على الموج.

سيغريك الكتاب بأن تسمع اكثر، في هذا الحيز من الظل، أجل سترى امرأة بثوب صيفي ملون، بيضاء ممشوقة، لم تحسن لفَّ فوطتها جيدا، أو هي تركتها معطلة على عنقها الأتلع، تمشي الهوينا مع صويحبات لها، يهبطن الماء ليملأن جرادل من الفخار، ثم يحملنها على أكتافهن، وليختفين في الظلال الكثيفة الباردة للنخيل والأشجار والزهور، لا لن يقول لك الكتاب اكثر من هذا! لقد نام صاحب الحكاية، صعد المدُّ نهر روحه، لفَّ الظلام وجهه وغاب..غاب..غاب.

باب النداف

في اليوم الثاني، حين عاد راوي الحكايات، سألته أين كنت البارحة؟ لمَ نمت هكذا، بين الماء والماء قال: أوصاني أبي أن أتطلع بين فروج وبيبان النخل، علَّ النداف يأتي، فالشتاء على البيبان، ولحافي قديم، بال، كذلك لحاف أبي وأمي وأخوتي، نحن بردانين، أنظر السماء تغيم، ها قد وصل النداف وصل، وصل، فلم يستأذني، تركني وأسرع نحوه..

من باب القطن جاء النداف بـ (قيثارته) السومرية الغليظة، (الطنكة) بخروجه التي اشتبكت في عرواتها الخيوط وعيدان الحلفاء اليابسة وأوراق الصفصاف الخضر، وزينتها زهور صفراء وبنفسجية..أشياء أخرى علقت بها عبر تجواله الأبدي، في القرى والأديرة النائية، التي ظل يحملها أو يعلقها على كتفه صبي له، أرهقهُ حِملُها، كان يضع العصي بخرج من الخوص، يسميها الكنانة، فهي تتأرجح خلف ظهره طوال النهار، (كيوبيد) الذي سربلته الغابات، يطوف الأماكن القصية، ينادي بجملته الوحيدة (نداف.. نداف.. أجعل الليل أعراسا... أجعل الدنيا أجمل وأبهى..).

شيخ في الستين، فارسي أو رومي لا يفصح عن وجهته في هذه الأرض، لكنه، وبأصابع نحاسية مطواعة راحت تشقق وتخيط، تساوي وتراب القماش الأزرق..بالأبيض والنيلي، البرتقالي المحمّر بالوردي المقدَّف، يعاونه صبيُه الذي تنفرط خصلات شعره على وجهه مثل خيوط من الزعفران.. راحا معا، وبقيثارة هرمة من الجوز، وعصي خيزران نحيلة يصنعان أعراسا وأحلاما لا تنتهي.

كان أبي يستقدمه عندنا في البستان، وفي دارة الخطار، على النهر، ليس بعيدا عن البيت الكبير، سور من الطين والقصب لا تدخله الشمس إلا ساعة في النهار، يفصله عن سوباط التمر صفٌ طويل من آس مقصوص،

وشجيرات غرب كثيفة، محشوة بعصافير، لا تطير بعيدا، بلابل وجنادب نائمة طوال النهار، وتفرقه شجرة توت عملاقة، تحجب الشمس والنساء عن المسناة الصغيرة، على النهر الذي يروّيه المدُّ مرتين كل ليلة.

يمكث أبو غلوم النداف في بيتنا أسبوعا أو أسبوعين، لينشغل ومنذ اليوم الأول بأكداس مكدسة من القطن المغبر والرطب، بلحفنا ووسائدنا ومناماتنا الواطئة المبقعة بالبول وأقداح الحليب، المسكوب عليها في الصباحات الباردة، بأسرتنا الواطئة لتصبح فيما بعد أفرشة أثيرة، ناعمة ومسماة بأسمائنا، فهو لا يبخل أن يوشيها بكلمات من ألف ليلة وليلة، ثم يرسم عليها شهرزادات حزينات وجميلات نائمات ومستيقظات، هذا النحيل المنغلق على الخيوط والقطن والأقمشة يدع الوعول تمرح على أغطية الموسلين الخضر. يرسم غابات نائية، غدرانا لا يتوقف ماؤها عن الخرير.. وبخطوط شفيفة لا تكاد تُرى، مثل أعناق طيور مهاجرة، مثل سيقان لقالق نحيلة، تشبه أجنحة بجعات طائرة مصفوفة، وبحروف كمناقير السنونوات الخائفة، راح يكتب آيات من المصحف، على الوسائد الصغيرة..كلمات فارسية أو كوفية أو بصرية قديمة، لغات لا يعرفها أحد، ربما هو حسب، لا تخلو من أخطاء، لكنها جميلة، ناعمة ورقيقة تذكر بالسهر والحرمان، وتدعو للهمس والطمأنينة.

كنت أنا من أُوكل إليه جلب الطعام والماء والشاي ونقيع الزبيب للنداف هذا، الذي طالما أشركني في مسراته تلك، فكنت الظم له الخيط، وأحصي الأزرار، أو القم القيثارة المزيد من القطن، وكثيرا ما كنت أُرى وقد علا رأسي برَدٌ أبيض، أو أني ألهو معه، فأصنع من نثيث القطن المتطاير عليَّ لحيةً كثة، بشاربين أبيضين لا أخلو معهما من وقار، ظلَّ حبيس وجه أبي.

في أخريات أيام وجوده بيننا، كنت أرقص مع قيثارته، هي التي راحت وعبر وترها الحزين، تحيل أشكال القطن القلقة، تحت ضربات العصا

الخيزران الملساء هضبة وفر ملونة، تغطي الباحة الظليلة، كنت أرى كيف تتقافز حبات القطن كعصافير حب ملونة فرحة، ومعه رحت أصغي للوتر الوحيد وهو يرتج ألما، أية أنغام كان يبعث بها هذا الأعجمي الغريب، أية غابات كان تركها هناك، كان أبو غلوم عصرا من الترحال والأسى، وحين كان يغط في قيلولة النهارات كنت أبكي معه، أيامه ولياليه، تلك التي ظل يخبئها تحت وسادته كلما انكسرت عصا صبره.

ولما كانت الوسائد والمنامات تملأ البيت ببلابلها وعصافيرها وأزهارها، بحروفها التي بهتت، وقد عتقت تحت أيد كثيرة، في بيت الخطار أو تحت رؤرسنا أو حين كنا نمتطيها كأفراس في برية الليل، هكذا وقد امتدت لها يد الدهر الطويلة..كنت أرى أصابع أبو غلوم، أسمع قيثارته تتردد عبر الليالي الباردة، والماطرة كنت أنظر من خلل الثقوب التي يحدثها الظلام في الأشياء، فأرى ثعالبه التي كانت تنبحها كلابنا كل ليلة، خلف غابة النخل، أسمع ثغاء حملانه وشحوب أقماره، كنت أتحسس



طريق في البستان

يده وهي تسلمني قارورة الزبيب الفارغة.

(مرة رأيت نحلة تغرق في عسلها فتعلمت درسا في السعادة والحزن..) لا أدري أين قرأت هذه، منذ ذلك اليوم وأنا مشدود لرائحة الأرض التي لا مستها إقدامي أول مرة، قبل خمسين سنة، لرطوبة العشب والطين، أحسها، أستنشقها كلما خلعت جوربي، كأني عائد من سفر طويل، وقد بعدت الطرق..أتذكر الدرب الأخضر الضيق، الذي لا يسع بقرتين ونعجة، كنت أسلكه خائفا مما تخبئه شجرة التوت الكبيرة، هذه الطريق كانت تبدو أجمل وأبهى بعد يوم أو يومين من سقوط المطر، كنت اخط عليها أسماء المراكبيين، حاملي التمر عبر البحار والخلجان، الذين يموتون في العواصف.

اليوم، وفي زحمة الأشياء التي تبدو بلا معنى، وقد أضل النداف طريقه إلينا، أو مات أبى الذي كان يستقدمه مرة كل سنتين، أريد مطرا قبل يوم أو يومين، أريد طريقا لا يسع بقرتين ونعجة، أرى في نهايته على النهر شيخا، ندافا، يحمل صبيٌ له قيثارة عجفاء، طنكة طويلة ومقطنة فيها الكثير من الخيوط الملونة، أريد كنانة عيدان تحكي عن السّهر والليالي الباردة الطويلة..أريد ان أفتح له بيبان روحي!

باب السباخ ...

ذات ليلة، لم يتسن للنداف المبيت طويلا في صوياط أبي، الذي على النهر، شق عليه البقاء تحت السماء التي تؤذن بالمطر، تذكر أوطانه فبكى طويلا، وفي هدأة، ضؤل قمرها، حمل أشياءه، واندس في ظلام المعاني، مع صبيّه الصغير، الذي تنسرح خصلات شعره على جبينه مثل خيوط زعفران، صفراء وحمراء، وبعد ساعة اختفى بين النخل، ربما أخذه التراب إلى قرية أخرى، هل أضلّ طريقه..؟ لا أحد في أبي الخصيب يضلّ الطريق. لكنه اختفى..

على مداخل الشتاءات، قبل المطر، أو بعده بقليل، حين يصطفّ الفلاحون، فلاحو أبي الخصيب، تحت الحيطان الطينية البائدة، أو قبالة أخصاصهم، في سوق عثمان، أو على رابية من الجذوع، قبل مباغتة الشمس لهم، قليلون أولئك الذي تناولوا فطورهم، وآثر كثيرٌ منهم قطرات من النسيم البارد، كلٌ يركن مسحاته، حشد من الرماح المهزومة، منتظرين أقرانهم، الذين مازالوا يتجنبون الماء، تحت الميازيب المنهمرة، يحثّون الخطى متهيئين لموسم جديد..

خفافا سرنا، نحن، الأولاد الحفاة، أبناء الأنهار النائية، رجالاً أو ركباناً على الدراجات الهوائية، الروج الفرنسية، أو الفيليبس الهولندية (علامة الأسد)، وقد حزمنا أكياسنا وزنابيلنا وأمتعتنا على مقاعدها الخلفية، مغذين الخطى تجاه السباخ، سباخ البهادرية أو أعالي حمدان، حمدان البز، حمدان الديرة، أو حمدان المعاريف.. حيث يقلُّ الماء هناك، ويشحب النخل حتى يختفي، ومن ثم لنصبح بعيدين عن القصب والحلفاء، عن القرى والنخل والطين، طين الروح البارد، الذي سنتركه عالقا في الاطارات، بعد عام كامل من الألفة الخضراء، من تسلق الأشجار والعبث بأعشاش الطيور

والاختفاء في الغدران.

لا أحد ممن يقرأون الحروف هذه اليوم، يعي معنى ذلك، ولا أحد بمقدوره ان يتصور سعادة أولاد حفاة، خرج آباؤهم، كلّ بمسحاته، سراويلهم تقصر وتقصر كلما إقتربت الشمس، ودنا أمر الفجر، وقد أتى الماء على بساتينهم وأغرقها، فماتت اللوبياء، وجفت أوراق اليقطين والقرع، وتوغل الماء المالح عميقا في أفئدة أشجار الرمان، ذوت وريقات العنب المتسلقة جذوع النخل، صار كل شيء في القرى هذه ذكرى حلم أخضر.

خرج آباؤنا ليجدوا لنا ما نأكل، كل يشحب تحت حائطه، يفكر بما سيجلبه، فما في البيت غير التمر، غير أرغفة ظلت تجفّ قرب تنور هامد. ففي موسم الفيضان تتحول القرى الى مدارات معزولة من ماء، يقف الناس ليشهدوا أشجارهم، زروعهم وهي تنغرز في الطين، يرتع بها الإوز، وتتخللها السلاحف والأسماك الصغيرة.

هذه السعادة البلهاء، سعادة من أنعتق من النخل والماء ودخل السباخ، حيث الشمس لا يحجبها سعف، ولا تتفلت من أغصان. فهي حرة هنا، تشرق متى تشاء، وتغرب متى تشاء، والعين بعيدة ترمي أفقها فلا ينقلب خاسئا، لا أحد بمقدوره الآن أن يفهم معنى الحرية التي ننعم بها، دشاديشنا تطير في الريح، وما أن نغفل عن زنابيلنا حتى تنقلب على الأرض، الممتدة، التي لا أمْت فيها، فنركض خلفها. وهي تعدو، لأول مرة نركض، دون أن تمنعنا نخلة، دون أن تعترضنا شجرة. هذا الفضاء الغائر بالعمق، كيف يفهم عند أولاد كانت أغصان العنب تطوقهم من كل مكان، وإذا ساروا تعثروا بجبال شائكة من اليقطين والقرع والحِنّاء، وحيثما كانوا فثمة حيطان، وثمة أبقار تطلب حاجاتها ثلاث مرات في اليوم، تطلب تغيير أماكنها كل ساعة، وأب لا تنتهي أوامره: (إسق هذا الفسيل، افتح الماء على تلك الباميا، خذ المنجل لأخيك، لنغرس أقلام العنب، فقد

غرس الناس، قل لعَمك أن يضفر لنا حبل الفروند، دع عنك اللعب بالنار، ثم الآن، إصح فقد طلعت الشمس، إجلب الخبز لأمك..). هذه الأفعال التي ما تنفك، تنهال علينا كل ساعة. هذه اللغة الآمرة اللعينة تجلدنا، الحياة هنا شعور دائم بالتهديد، تنبؤ أزلي بالكارثة، ومحو تام للأمل، شغف عجيب باليتم، هذه الإحاطة الكلية بالعوز. لم نكن نعي بعد معنى هذا كله، لكنّ الأب له سلطانه، وله قدرته على سلب الحرية، الحرية التي نفهمها، ليست أكبر من الخروج من النخل نحو الشمس والسباخ. هناك قريباً من الله الذي يفتقده آباؤنا في سنيّ الفيضان.

كانت مهمتنا غريبة حقا، وذرائعنا أكثر غرابة، لكننا خرجنا بأوامرهم، لا لتفضلهم علينا بالأفق الفسيح، ولا لحاجة في نفوسنا للانعتاق، ولكن لجمع الروث، روث الخيول والحمير والبغال. هذه الدواب التي كانت تجوب برُّ البصرة آنذاك، مصدر سعادتنا، ولولاها لما تصدَّق أحد علينا بحريتنا تلك، الدواب، دواب العرب الرحل، القادمين من الأقاصي المجهولة، من الشعاب الموحشة والواحات، التي لم نكن نراها يوما ما، في هذا القفر المفرد لنا، كانت القطعان ترحل هائمة، قبل وصولنا، كل شتاء، لكننا كنا نرى آثار أقدام وحوافر خيل وحمير وماعز، بقايا عصي، وأكوام دغل ونباتات لا تنمو في قرانا.

حاجات لم نر مثلها من قبل في قرانا، يتركها الرعاة ويرحلون، مغازل مكسورة، أواني قذرة، قطع قماش مهروسة، أشياء لا نأبه من وجودها قربنا، هي ليست ضالتنا، نحن أولاد الفلاحين، حسبنا أن نلم روث الدواب ونعود، كنا نستدل عليها من أثر المسير، مسير الأقدام والحوافر، نلتقطها مثل موسم لجني الكمأة، كنا نفتخر بكثرتها في موضع ما، ونحزن لندرتها في موضع آخر، وحتى يهدنا السعي، تكون صرر متاعنا قد بعثرتها الريح، وتخللها الرمل، فصارت الأرغفة هشيماً وصار التمر أكثر شحوبا وقذارة.

نفتش عن الماء فلا نجده، ونطلبه فلا نراه، وإذا وجدناه فهو مالح مر، ضحضاح لا تستسيغه النفس.

ولما كانت الشمس قد أوهمتنا بقوتها، بقرونها الممتدة في كل مكان، وأنها لازالت فتيّة يُسارُ بها الساعة والساعتان، لكنها ما أن دنت من الأرض حتى اختفت وهبط الظلام- وفجأة صارت أكياسنا أوهاما، وبضاعتنا غير آمنة، صارت دراجاتنا دواباً غريبة علينا، تاهت في الشفق النازل، وباتت طريق عودتنا بعيدة، صرنا نحثُ الخطى، ففي البرِّ ذئاب مسعورة، جائعة، وأسود كاسرة، وأفاع سامة، تتلوّن في الرمل، وتفحّ كلما اقتربنا منها، هكذا كانت صورة القفر في أذهاننا، وإن الذاهب لها قلّما يعود، ستأكله الوحوش العطشى، أو يسرقه العرب الذين يجوبون الليل في طريقهم للمدن الأخرى.

ها نحن ندنو من النخل شيئاً فشيئا، وهذه البيوت بدأت تلوح لنا، لم نصادف بعد أحداً من أهلنا، لكننا أصبحنا قريبين من أسوار الطين، من أخصاص حمدان، وهذه الفسائل النديّة التي يلفّها ابتداء الليل بدت لنا مثل عوائل نعرفها، تثير فينا شعوراً غريباً بالطمأنينة، بالألفة والشبع. لقد أمحّت أصوات البرية، اختفت الذئاب والأسود، ودخلت أوجارها الجرابيع، نحن وسط النخل والماء الآن، وسط الظلام الآمن، سندخل بيوتنا وستظل بضاعتنا خلف الأبواب، على الدراجات، أو مركونة إلى الحيطان، سيعنّفنا الأهل قليلا، إذْ إنّا تأخرنا كثيرا، لكن سيفصحُ الفجرُ عن حفر قرب المواقد، توضع فيها بذور الذرة والخيار والباميا والقرع الأحمر(البوبر)، لتُغمرَ بالروث الذي جلبناه أمس، وسيعملون لها فيما بعد فسحة من الأرض، قريبة من النهر لتفرش بروثنا، ولتغمر بالماء ثم تنثر عليها البذور التي تفطرت في الحفرة، قرب الموقد، حيث يعجّل الروث والدفء نموّها.

وهكذا سيهشّ الوالد ويبش لمنظر الفسحة، وهي تورق فيعرّضها للشمس

في النهار، ويغطيها قبل حلول الظلام، لتأخذ ما يطيب لها من الدفء والطمأنينة، بعيدة عن عبث الثعالب والفئران، ولكي تستقيم مطلع شباط، حيث يكون ماء الفيضان قد انحسر، وصارت الأرض أكثر أملاً وأرحب نفسا، وصار أهلنا أرق وأرأف بنا. فها نحن معهم نصغي للنخل وهو يخضر، للأنهار وهي تستجيب للمد والجزر، للشمس وهي تزاور السعف والتوت، خلف بيبان أفراحنا الكثيرة.

باب سليمان

ما زالت بيبان أبي الخصيب تنفتح وتنغلق تباعا، وإذا كنا خرجنا من باب السباخ، فهذا لا يعني إننا لن نفتح بابا على الماء، ها هو سليمان بن جامع، كبير قادة علي بن محمد، يفتح باب نهره، ويبني سفينته، ليمر الزمن سريعا على الضفاف التي كانت وردا وظلا، وليأت حفيد بيت الهارون، بعد الف ونيف من السنوات، ويسكن القصر الذي بناه أجداده، اليوم طلل بيد البلى، ولتتكرر السفن صاعدة، تجاه الشط العظيم، محملة بالتمر والعنب، ها نحن عند عتبة باب سليمان، هذا الجسر، هذه البيوت، ها قد نزل الملك فيصل الثاني ضيفا على القرية التي سرقت النهر.

سنة ١٢٤ للهجرة إحتفر سليمان بن جامع قائد جند علي بن محمد (صاحب الزنج) النهر، المسمى باسمه، حتى اليوم (نهر باب سليمان)، وإذا كان التأريخ لم يحفظ لنا قصره الذي بناه من الطين والقصب والجذوع، بعد أن تبدد ذكره في الحكايات، وذابت ظلاله بين الماء القديم والطين المُحدث، فأن حميد الهارون الذي احتفظت الأيام الأخيرة بأطلال قصر أجداده على النهر ذاته، اقتطع لنا من الزمن الوقح شرفة عائمة في الريح، ظل يطل منها على النهر، أيام كان الخلود يعني الماء والموج والظلال.

هذا النهر كان ممرا لعشرات الأبلام، أبلام التمر والفاكهة والورد والخضار، قوارب الليل والغرام والسماء المفضضة بآلاف النجوم، ليسمع من كان يتسمع لأوتار عوده الفاتن، ولصوته الشجي العذب، حين راح يغني وحدته وعزلته ووحشة العمر، غير آبه بما جلب الزمان وما استودع، لا يعنيه ما إذا كان الموسم مربحا أم لم يكن ! فالليل خمر والصبح أمر وتمر، حتى إذا انقضى شطر الليلة الأكبر، ولعبت الكأس بلبه، ساعة يتدلى قمره الوحيد، شخط من لجين وحناء في سماء سعفه الرطب، ستضيع

ريشته، وتتعطل النغمات في صدر عوده، وحين جد في البحث عنها بين كؤوسه وقواريره وأواني فاكهته، تراءت السكين له ريشة، راح يعزف بها نغمه الأخير، ذكرى عمر طحنته السنون، وحين كان الفجر يدس أول خيوطه في النخل، كان حميد الهارون قد أتى بسكينه على الأوتار كلها، ذبحها جميعا، من الوريد إلى الوريد.. ليخلد قريبا منها، ليس بعيدا عن ضجة الفجر وجَلَبَةِ الأبلام والكواسج النابحة بين الضفتين. تُرى هل ذبح عوده على النهر؟ لينهمر دم الزمن احمر مزرقا ! دم عزلته ووحشته أم ليذكرنا الزمن هذا بتفننه في قتل الإنسان والقوارب والأنهار؟ أيها الراوي هلا قلبت الورقة.

إذا ابتعدنا قليلا عن جسر باب سليمان، باتجاه مدخل النهر، الذي بني مع ما بني من جسور على انهر وشطوط أبي الخصيب، سنرى جسرا لم يعد يصلح لمرور المركبات، دعاماته نابتة حد أذنيها في الماء الضحضاح، تنغرز فيه منذ الولاية العثمانية على العراق، خشبه ممسوح مفكك، مساميره منحلة صدئة، يتخذه المارة معبرا، يبيعون عند ناصيته الجنوبية السمك والقصب والحلفاء، ويوثقون قواربهم إلى ما ظل من أخشابه، يتحدث البعض عن قدمه وأهميته باعتباره نقطة ينتهي عندها سير القوارب، لتبدأ اليابسة، ترى أي علاقة آمنة يبدأها الماء المتصل أبدا بالقوارب والظلال، عبر رحلة أبدية تبتدأ بالأقمار الطافية، ثم تختفي في الشطآن المنخورة، بالريح والمجاذيف.

باب سليمان، القرية التي يحدها نهرها المسمى باسمها من الشمال، ومن الجنوب نهر أبو فلوس ولكي تكون العصفورية وباب دباغ والرهوالي على غربها دائما، رغم دوران الأرض صارت جيكور ويكيع على شرقها، الذي تأتي منه الشمس والقوارب المحملة بجنائز ذاك الصوب (المحمرة وعبادان) لتقلها الباصات الخشب إلى مقابر الغري الواسعة.

يقول راوي الحكاية أن الشاعر بدر شاكر السياب، الذي أكمل دراسته الابتدائية في مدرسة باب سليمان، تمنى أن تُبنى مدرسة باسم مدرسة نهر العذارى، لكن محمد علي إسماعيل سبقه، فكتب قصيدة يرثي صديقهما عبد الوهاب فعيل، جاء في مطلعها : (إن تغب شمسك عنا إنما –بقيت منك على الأفق بقية) وقبل موته بسنوات يقول الشاعر طالب عباس هاشم عن فؤاد الكبان، المدرس المعروف، وصاحب أكبر مكتبة خاصة في أبي الخصيب كلها : انه كان يعس في ليالي رمضان، متلثما، يبحث عن طلابه الذين يلعبون (ولي ياك) ليحاسبهم في الصباح، وما دمنا في ذلك، لنسلم من ورقتنا هذه على شيخ المعلمين، معلم الموسيقا والنشيد والرسم والنحت ياسين صالح العبود، الذي يحفظ عن ظهر قلب تأريخ مدرسة المحمودية، التي تفخر مقاعدها بذكرى نخبة من الكبار، جلسوا عليها ذات يوم، ولا أقول : الشاعر بدر شاكر السياب، أو محمد ناصر، صاحب كتاب من القرية إلى بغداد ومن بغداد إلى العالم (وزير ثقافة عبد الكريم قاسم) والمربي –الشاعر – الإنسان محمد علي إسماعيل، والشاعر الذي إرتوى غرية حتى



نهر العشار القديم

مات، مصطفى عبد الله، ولا أنتهي بالكبير، شاعر العربية الأول اليوم، سعدي يوسف.

قبل سنتين من الزمان هذا، أي زمان، الزمان في باب سليمان يتوقف كثيرا، ومنذ أن وقفنا على صخرة المسناة الصلدة، على صدر النهر، حيث وقف القنصل البريطاني قادما من المحمرة، ولما كانت الحجارة صلبة بما يكفي للرفض، سقط القنصل، وانكسرت ساقه، هل يعلمنا باب سليمان درسا في الماء والنخل والعشق والأمل، أم درسا في الرفض والإباء؟

وفي جانب من الحكاية، يقول معلمنا ياسين صالح العبود:كان الملك فيصل الثاني قد قدم باب سليمان، بزورق بخاري، نقله وحاشيته من باخرة كبيرة، كانت راسية في شط العرب، كانت القائمقامية قد فرشت بالسجاد الأحمر الأرض المحيطة بالجسر الخشبي، كان الوقت خريفا، ولما يئن بعد للأشجار أن تورق، زرعوا له، على جانبي الطريق أشجار العنب والرمان والورد، جاء به الفلاحون من بساتينهم، وفرشوا الطريق له سعفا أخضر، حتى وصوله بيت الوجيه سلمان الموسى، حيث أستقبله في قصره، وقد رأيت الفناجين التي شرب بها الملك، كانت ذهبا خالصا، هل سمى الفلاحون في باب سليمان الحفل ذاك بحفلة الجسر، ربما، لكن احدهم قال: (لحفلة الجسر بعد العيد ميقات – دعا فلبت من الأقوام أصوات) هل تنتهي عند الجسر هذا رحلة الماء،؟ هل تبدأ اليابسة؟

باب الكويت والبصرة

يصمت الراوي هذه المرة، ربما تذكر شيئا ! أيخبئ حكاية جديدة في كيس حكاياته الألف؟ قال لقد هاجر الكثير من أبناء بيت الهارون وغيرهم من الميسورين في البصرة إلى الكويت، بعد ان ضيّقت الأنظمة الجمهورية عليهم، تركوا املاكهم ومنازلهم، فتحوا بيبانهم على الأنهار، العشار، الخورة، السراجي، مهيجران، حمدان... وأبي الخصيب نهر باب سليمان وسكنوا هناك.. قلت الكويت فقال البصرةَ بابٌ للنخل والكويت بابُ الجيران.

المكان: تحت السدرة، مقهى عبد الله المعيوف، على نهر السراجي، قرب الجسر الحديدي.

الزمان: مطلع الستينات من القرن الماضي.

المشهد: شاشة بيضاء، على منضدة مرتفعة في المقهى الصغيرة، تظلها شجرة النبق العملاقة، التي تغطى الباحة والغرفة الشتوية، التي يطلُّ شبّاكها على النهر، بل إن طارمة المقهى تلامس المدخل الحديدي للجسر، فلا تكاد تعرف من يحتضن من، هل كان الجسر مقهى؟ أم كانت المقهى جسرا، فالقطعة التي يتشكل المكان منها تسمى حتى يومنا هذا بـ (المعيبر) إذ لم يكن هنا جسر، ولم تكن هناك مقهى.

سيظل الطفل الذي يصطحبه أخوه الأكبر مشدودا للشاشة البيضاء حتى التاسعة مساء، وستظل عنقه مشرئبة الى الضوء السحري، وبعد قليل سيطل المذيع الشاب أحمد عبد العال أوالآنسة أمينة الشراح، ومن ثم هدى المهتدي أو أختها ندى ليعلن أحدهم عن بدء بث المسلسل المحبوب (عائلة بو جسّوم) وحتى مجيء اللحظات تلك، كان على الصبي أن يستمع لأغنية – عادت بنا الأيام فوق السفينة، لشادي الخليج، أو لسعود الراشد، يغني على

يا دان يا دانه، وهو يحتضن عوده الشهير، وبين هذه وتلك سيرى الدفوف الكبيرة، وقد خط على جلدها بالإصبع عبارة – فرقة عودة المهنا – سيرى نساء يضربن الدفوف، وهنً جالسات يغنين أغنية عن البحًارة العائدين من الغوص، أو الذين انكسرت سفنهم عرض البحر، وظلّوا هناك، تتمزق أفئدتهم تباعا.

ولا يعدم، أيضا، أن يرى اغنية للمطرب النحيل الذي مات بالسل فيما بعد (عبد الحميد السيد)، أو أخرى لعوض دوخي أو الكويتي الذي اسلم باكرا (محمود) بغترة بيضاء، وعقال وضع مائلا مع مجموعة العازفين. وقبل أن ينفد صبر الصبي يعلن المذيع أن الوقت قد آن لعرض مسلسل (عائلة بو جسّوم) فتنشرح أساريره، ويهش ويبش حين يبدأ رويشد(الصبي النزق الألعبان) بافتعال المقالب والخصومات بحيله الصبيانية، بينما لا يني أبو جسّوم يسامحه ساعة ويؤدّبه أخرى، ثم تختال أم جسّوم بثوبها الهاشمي الأسود، وشيبها المصبوغ بالحناء، فيضحك الصبي ومن في المقهى، وتهتز الأرائك البالية، وتنقلب استكانات الشاي التي ما يني أبو نوري يقدّمها للجالسين، فيلاحظ الصبي أن عقال أبو جسّوم من النوع الذي يسمّى بـ (المكّصب) كان قد رآه من قبل في درج ما، عندهم في البيت، عقال من قصب وقماش وخيوط صفراء، يقول أبوه بأنه لعمّه الذي مات نهاية القرن الثامن عشر، وينعم النظر فيرى اليشماغ البحريني، المنّقط بنقط لا تكاد تبين في الالكترونات المتراقصة على الشاشة، ولطالما رأى مثله هنا في القرية التي لم تسّم بعدُ في الصحف وأجهزة العرض وغيرها، لكنه يشماغ يشبه يشماغ الحاج عبد الرزاق العثمان، أو الذي يرتديه محمد الحمد الملاّ. ثم أنه لا يجد فرقاً بين اليلك الذي ظلّ أبو جسّوم يرتديه طيلة سنة كاملة في التلفزيون وبين يلك عودة اليعقوب (أبو سالم) بل هو عينه، وهكذا راح الصبي لا يميز بين ما يراه في الليل على الشاشة، وبين ما هو

كائن في القرية. بيوت، رجال ونساء، علاقات حتى حين أطال النظر في فوطة أم جسَوم والبوشي الذي تضعه على وجهها وهي تطل من خلفه متحدثة مع أبو صالح المثلاج عند الباب، بنصف وجهها، كانت تشبه أمه، أو امرأة أخرى، في أحد سكك القرية (الفريج).

وحين كانت الكاميرا تتنقل بين أثاث المنزل كانت عينه تقع معها على باب الدروازة الكبير، ومحمل كيزان الماء في الليوان، المدانة، الشربة أو الشرابي الفخار الصغيرة بأغطيتها البيضاء الململ. المهافيف في الرواشن والزجاج الملون , القدور، أنواع الطعام، المِوش، الروبيان، السمك، الأواني النحاسية وإبريق الشاي، ولما اضطر المخرج للانتقال بكاميرته خارج المنزل، وصارت صورة الزقاق (السكّة) على عرض الشاشة كانت توهمه بأن الكاميرا إنما دخلت سكتهم (سكة بيت أحمد العبد العزيز).



دكان للبيع الملابس

أذهله التوافق هذا، وراح لا يفرّق بين عائلة (عائلة بو جسَوم) وبين أي عائلة أخرى في القرية ن طبيعة الحياة، السكن، الأفراح، المشاكل، الطعام،

هيئة الأبنية، السقوف ن الحيطان، مفردات الحياة الأخرى، مثل اللغة مثلاً و اللهجة و مخارج الحروف، وما أن شعر ببعض المفردات وهي تتسرب في لغة الحوار مثل البصرة، الزبير، أبو الخصيب و البنكلة و التمر، شط العرب و أظهر (بمعنى أسافر) مسيد (مسجد)... غيرها حتى أحس تماماً بتطابق المرئي والمعاين، فما بيت أبو جسّوم بمنزل على شاشة، بل هو واقع يومي حقيقي. وما الناس الذين فيه إلا أناس معه في هذه القرية المسكنية البائسة، فرويشد هو أحد الصبيان النزقين الذين لا يكفّون عن ابتكار المقالب والخروج على طاعة الجد، وعصيان الأهل بالمزحة البريئة الساذجة.

من هنا صارت شاشة تلفزيون الكويت التي سبق دخولها أيّ شاشة أخرى فقد ظَلت البصرة حتى بعد انقلاب عام ١٩٦٨ لا تعرف شيئاً عن تلفزيون بغداد، صارت النافذة التي يطلّ الصبي منها على نفسه.

صارت الأسماء تتشكل في الذاكرة الغضة، لا بوصفها حياة ممثلة على شاشة وإنما حياة فعلية، لا يختلف عما يراه ويسمعه يوميا، ولم تُفلح قناة تلفزيون البصرة البعثية ذات البث الرديء، المفتعل، والمتكلف أن تخترق روحه الصغيرة، إذ لم يجد فيها ما يتشاكل وينسجم مع ما يشاهده على شاشة أمينة الشراح وماما أنيسة وشادي الخليج وعائلة بو جسّوم وسعود الراشد وأغاني البحر والمهيلات وحكايات الغوص، بذات النبرة القريبة الى روحه كانت المفردات تخرج من القلب لتستقر في لبّه، بياءات خفيفة بريئة، عكس ما كان يعانيه من جيمات أهل بغداد، ومفرداتهم المضمومة دائماً التي إن أراد ترديدها فعليه أن يستبدل أشداقه.

لا أريد أن أسلخه من عراقيته، لكني أريد أن أؤسس لبصريته، وأكرس عراقية من نوع خاص، متعالقة من غير تقاطع مع الآخر، إذ لا يعرف أهل البحرين مثلاً عن العراق أكثر من معرفتهم عن البصرة، وكذلك أهل اليمن

والكويت، فالعراق عندهم البصرة، ولو سألت أحدا من أهل عُمان ماذا تعرف عن العراق لقال لك البصرة. كان البحر وما زال، مرورا بشط العرب طريقا سالكا آمنا على مر العصور، بينما ظلّ الطريق الى بغداد محفوفا بالمخاطر.

كانت البصرة غنية، وكانت الكويت فقيرة، البصرة بشطها ومائها ونخلها وغلّاتها، والكويت بصحرائها وبحرها وندرة موارد الحياة فيها، ويقول الراوي : تلك الأيام نداولها بين الناس.

تشير خرائط الأنهار والبساتين والأملاك إلى ان الأسماء التي تدوي اليوم في عالم المال الكويتي، هذه الأسر كانت هنا، قبل عشرات السنين، وتأسست في محيط البصرة، لكن المتغير السياسي العراقي اضطرها للخروج، واستبدال المكان والهوية وجواز السفر، استبدال الحياة التي اتسعت خارج العراق، بينما ضاقت داخله. ففي قرية صغيرة واحدة تدعى (عويسيان) هناك جبلان سميا مجازا، فهما تلان ترابيان، لا يرتفعان كثيرا عن الأرض. يسمّى الأول بجبل القملاس والثاني بجبل الدويش لا يعرف أحد من الأحياء الآن متى أقيما ومن أقامهما وكيف؟ ولو تفحصنا الحياة اليوم لوجدنا أن هذين الجبلين سميا بأسم عائلتين معروفتين في الكويت، وهناك عشرات البساتين لمالكين من عوائل أخرى مثل العون، الزهير، أبو الخيل، الدويش، القملاس، العوجان، المحري، الحميضي، العتيجي، البابطين.. الخ.هي لهم منذ عشرات السنين، قبل اكتشاف النفط، قبل الحكومات والسياسة وبورصات الصكوك.

كان فوزنسيكي الشاعر يقول متحدثا عن إحدى المدن الروسية : هناك الكثير من الإغريق في بطرسبورغ. وعلى مثل هذا يبكي البعض مدناً تبعد آلاف الأميال عنهم، ويفرح الآخر لأفراح آخرين، لا تربطهم جغرافية مشتركة، ولا انحدار عرقي مشترك، بينما يجد البصري والكويتي أكثر من ذلك بكثير.

ما زال الصبي يحدّق بالشاشة البيضاء الراكدة، يسمع لغط البعض، وفجاة، رن جرس مائي بارد، جرس لا يشبه جرس المدرسة القريبة من المقهى كان النهر هامدا خلف السدرة الشعثاء، وكان الجسر حديدا، يسع ثلاثة من باصات الخشب..قبل أن يوقظه صوت شادي الخليج وهو يقول:

(نحن عدنا ننشد الهُولو على ظهر السفينة.. نحن عدنا، عدنا للمدينة).

باب السفر

وانت حكاية السفر أثيرة لديه فقال :كثيرون من أهل البصرة والزبير وأبي الخصيب هاجروا، لاسباب إختلفت، بينها الحروب والخسارة في التجارة، تركوا بيبان بيوتهم مفتوحة على الماء وهاجروا، هناك محنة في مفهوم الوطن لدينا جميعا، وبعد ان اخفقت تجربة الهجرة عندي قبل أكثر من ثلاثة عقود، قررت السفر، فسافرت بعيدا، خرجت من محنة الوطن الوحيد ساعة، او ساعتين، و كانت لي حبيبة هناك، سافرتْ وعادت، وكذلك انا سافرتُ وعدت، نلتقي هنا، ونلتقي هناك، حتى صارت حكايتي معها لا تتم إلا خارج حدود الوطن، الذي يضيق الايام هذه، وفي غمرة ما أنا شاك منه، وجدت ان باب السفر باب لقراءة الدنيا، وهم يقولون بيبان الله واسعة، وأذكر أني قلت لها:

تعالي نقرأكتب العشق معا، أنت رابعة العدوية وأنا السهر وردي المقتول، أنت زرين تاج الفارسية وأنا الحلاج المصلوب، أنت سافو وأنّا أخماتوفا وأنا شمس المعارف والمجاهل، أنت تزيين الأسواق وأنا في محاسن العشاق. هكذا حتى ينقضي البحر من حولنا وتتكسر المرايا، ويؤوب الزمن.

لم تكن الطائرة قد أقلعت بك حين حملت حقيبتي تجاه الريح، لم تكن الأرض مدورة تحت جناحيك حين دارت بي في صحراء العرب الرطبة، ولم يكن البحر كاملا قبل وصولك إليه، ولم يكن الموجُ مستعداً إلا لقدميك وهما يخبطان الساحل الغريب، تحت الشمس الخليجية التي تنطفئ باكرا على الرمل. فكوني قرصاً من قمر ساقط في اللجّة، أو كوني لجّة هذا النأي، يا سيدة الوهاد والسهول والأقاصي.

هكذا، رحت أكتشف معك ما يتمظهر من الجسد الرافد يني العذب، رحت أسمّي وديانه ومراعيه، أرسم خرائطه البكر، بأحمر الشفاه وبالبنفسجي

حددت الجبال والسهوب والأنهار، رحت أجمع ما تناثر من هذه الميزوبوتيميا على يديك مرة.. وعلى قدميك مرة أخرى، على مرآة الفندق المضببة وصفحة الكتاب في أصيص الزهر حيث ينمو ويشرأب عطرك الأبدي، إلى جوار لحظة البرد وهي تقشعر يقظة عند قمصانك وسراويلك. وباذخاً رحت أحيي تمرغَ النور على فساتينك، وهو يلتئم صامتا تحت جفنك الندي السهران.

ومعك.. معك رحت أبحث عن بطاقة السفر وتذكرة المحطات، تأشيرة الحدود، وعن قرطك الضائع تحت قائم السرير، ذاك المحشو همساً وحكايات، أبحث معك في عيون رجال المخافر الليليين عن اسمك اللاصف في البرد، وتربكني مثلك نظارات المفتش وهي تتقلب في فضاء حقيبتك الصغيرة، تبحث عن سرٍّ ضجرك وتقلبك في الطابور، وكأي من سعاة الصحارى التائهين رحت أومئ عنك له، أفهمُه أن لا أحد معك في قميص النوم، لا أحد إلاك في وحشة الشوارع وتيه المنعطفات وأنت فرد في هذا الليل، غريبة وضجرة وملولة.

هكذا رحت اسمّي له أشياءك واحدا واحدا..وقلت له أنت كما أنت على الإسفلت أو على العشب. في بغداد أو البصرة، أوفي العواصم المنغلقة على عرويتها. ولا شيء في عينيك تينك الماسيتين، وهذا القميص الباذخ الرخص لا ينطبق على أكثر من يمامتين تفران في الليل وتسرحان في النهار، وكل ما فيه من العذوبة خالص له، ليس لأحد سواه، فلا تحفل أيها البدوي بأكثر من نجمة على كتفك وهذه الحقائب فارغة إلا من قصائد لن تكتمل، كتبتها امرأة جاءت من بحة في نداء، أو هاتف زوّل خطأ، من عربة ظلت تشقق عباءة هذا الليل الذي هو مدركها، في محطة قطار، في أقنوم خارج المصادفات، من بلاد لم يكتمل بهاؤها بعد، وشوارعها مركبات وأجساد ورصاص يتطاير، أطفالها لا يكبرون ولا يصغرون. فقل لي من أي

البوادي أنت؟ ومن أي الفلوات سقت ضواريك عليّ لترتطم علناً بالجسد الأخضر المنهمر نخلاً وصفصافا...قوافلك تترى، وجرابيعك تنهمر، وهذا القفر مصحف واقف بيننا، أنت تقرأ وتتلوى ودمي يسيل، أتراك سترتوي؟وهذا زمن يؤرخنا معا، أنت بتراتيلك وحروف مدك ومهموساتك وأنا بلحمي الصاعد في الفضاءات، فقل من يصعد للرب أولاً صوتك أم دمي.

أقول.. تعالي، ندخر بردا وحكايات للياليـنا القادمة، ولندع الأفق ينغرس بيننا طلا وخزامى، وندع الكتاب ينصّفه نصلُ ريشة، طاووسٌ يستيقظ على قطرة مطر، أو ابتسامة فجر، تعالي نفاجئ جسدينا بسرير مفرد من هذا الليل، سرير بعشر وسائد لأطفال نبتكرهم سرا.. لعلي..لعلك..لعل أساورك تضيع ثانية، أو يسقطها طفلٌ وهمي تسلل سراً إلى مرتبة نومك، وعبث بأدراج غرفتك في الطابق الألف على البحر، سحب شرشفاً أو أزاح ستارة.

هذا الارتباك باد عليك، شعرك منهمر، حزين وضائع وأقراطك ضائعة، أيضا، أكان حلم البارحة مزعجا؟ هل سقط ثوبك على عتمة الأشياء واختفى؟ أم هو كذلك؟ منذ ضممته عليك؟ وظل صامتا يائسا!

لا لست ملاكا من قال لك هذا؟ أنا حزين حقا، بل اكثر من محطم، مثلك..لكني اعرف ما يتكسر من هذا الليل في أنفاسك، وتوحشني أصابعك القصيرة الباردة. لكن صدقيني اقدر أن أنحشر في قلم، أو أتمدد في جسر، أستطيع أن أنهمر من غصن وبلمسة من يدي الضمأى أعيد لك كل شيء. القرط الأكذوبة والأساور التي لم يبعها لنا المجوهراتي في بغداد، الأحلام الموعودة، أعيد الذهب والمخمل، قائم السرير، وقطيع التساؤلات، أعيد الأزرار والسحابات أرتب الحقائب ومشابك الشعر أعيد انتظام الستائر وبرانص الحمّام، وفي كل قبلة أسمع بحراً يرتطم وأرى ضبياً يولد، قصيدة تنشد. الآن أحتفي بطفولتك ولعبك، وأنثر في الريح قمصانك.

باب شمال و جنوب وامرأة

في الفندق ببغداد، عام ٢٠٠٣، حين كانت أساطيل الحرب ترسو على مبعدة باب أو بابين من قريتنا، التقينا ثانية، وقد جمعنا حب الشعر والحرية، والحياة بدون عسس، ثم اني ذكرتها بالنخل الذي يصعده الماء، كل يوم مرتين، ضحكت، وقبل أن تأخذها الحافلة تجاه الجبل، دسستُ في يدها الورقة هذه، فكانت بابا..

في الأرصفة الباردة، حين تغويك الأشياء، ولا تنتظم في رأسكَ فكرة ما. حين تجد يديك فارغتين إلا من ذكرى نائية لامرأة، ستجد في التجوال الممض لخطاك، في الظلال التي تأثثت بالذكورة والأنوثة عبر السنين، انك لم تكن وحيدا أبدا، ثمة أغنية ابتكرتها الشواطئ القريبة من الرصيف، تعلّمها الموج بترداده الأزلي على العشب والصخور وظهور السلاحف... تدعوك، فاستمع. هي أنثى الغرية و ذكورة الجنوب المالحة، هي النسيان الباذخ فوق الخطى حيث لا تتكرر النوارس على القوارب ألا مرة كل عام. هذا النداء الأزلي الذي يعصف بالروح، الروح الورقة الملقاة على الرمل منذ خمسين عاما، تبتكرها الظلال أو تعيد صورتها أو ترسمها الأشرعة على الريح الباردة البلهاء.

من خطأ في الصحيفة، تُصحَحِه، غير مكترثٍ بما يضمرهُ الطباع، مصففُ الحروف، مخرج الصفحة السادسة، ابتكرت سطراً وقفت بانتظاره المساء تلو المساء، (حتى تمزّق الغيم من حولك، ثم حين تأكد انحناء الجسد لديك، هبَّ الطفل النزقُ في روحك، متحديّاً ثلج الفودين و ارتجاف الأصابع... ثم غمر جسدك بالأنوثة غمرها كلها، حتى ابتلّت عروقك، ظامئ الأسارير كنت، عطشاناً هل لامس شعرُك الصدغ الجبلي حين انهارت

الشمسُ عليك أم اكتفيتَ بيدك و هي تضطرب في اليد السالبة، باردة الخواتم...؟

مورقاً تخرج، كأن الحدائق أسلمتك للندى، بينما يعلّق الباعةُ الفاكهة كؤوس نور في الواجهات، لا يغضبك الحوذي، يرفع سوطه عاليا، تجري العربة. حصان يطارد الريح، فينخرقُ وجه الأرض، المدينة تمزحُ مع شتاء كاذب، فيرتجف الرصيف، غييمات متأخرات يخنقن وجه الشمس، هل طلبتِ صيفاً بالنخيل، أنا قلتُ للخريطة أن تنقلب، و عبثتُ بالجغرافيا... قلت من أجلكِ تؤجلُ الفراشاتُ ألوانها. و لكِ يقف سائق الحافلة على الجسر حيث يمنع رجل المرور وقوف المركبات. أرأيت المدينة كيف تبتكر أمناً زائفاً بينما الأدلاّء غائبون، تفتحين سحّاباً آخر ليفرّ أرنبان و ليتحرر الجسد. الحرية ان ينهمر شعرُك، أن لا يأتي الإدلاء أبدا.

قرأتُ لكِ القصيدة التي كتبتُها العام الماضي، قلتُ لكِ متعجلاً سأكتب للعام القادم قصيدة. و ما إن أحضرتِ حقيبتك حتى أكملتُ الحرفَ الأخير، و بورقة كثرت أخطاؤها قلت :

سيمضي وقت طويل
كي أمحوَ ذكراك
أيتها العزيزة يا زهرة الجبال
سأنتظرك في مرافئ كثيرة
على شط العرب
و ستمرّ قطارات نحو الجنوب
لن تكوني في إحدى عرباتها
لأن البرد سيمنعك
هذا الشتاء .
أيتها الشمالية الصغيرة

سيكون الوقت قد أعشب
من آمالنا
التي جفت مطلع القرن
انتظريني إذن
على جبال شاهقة
حيث يتراكم الثلج
ليس بعيداً
عن قلبك الأبيض الصغير
سأنتظرك في السهول
في السهول
حيث تشرق الشمس
لأول مرة على شعرك الفاحم الحزين.

أرأيتِ كيف يتحققُ الشعر، الآن أسألك ؛ هل جلبت برنصا للبرد... ؟ أم اكتفيت بالجنوب حيث يَعِدُكِ بالدفء والنخيل، نعم اختفت الشمس في الأول من نيسان، كادت تشرق في الأيام الأخيرة، ألم أقل لك أن لحضورك أكثر من معنى...؟

كان سائق المركبة الصغيرة يفرّق عينيه على المرآة، مرة، وعلى عطرك الباذخ في المقعد الأخير مرة أخرى. و في الغياب المبكر للرعاة، حين كانت المركبة تنتزع النخل بمرورها البطيء الحر، غير عابئة بالظلال التي ظلّت تتقاطع على بلور السيارة الأمامي، فترسم وعولاً متأخرة، أسماكا و غدراناً نائية، ثيراناً ومتوحشين، ذكورة وأنوثة تنفلت من السعف الأخضر و الأنهار.

أردت أن أقول أنّ السائق أكثر بهجة مني لأني رأيت عينيه باردتين في محجريهما. بينما تقدح عيناي ألماً و غربة. كان قميصك ينفتح للريح مرة

و للموج و المطر التائه مرة أخرى فأؤجل عناقاً و أقمع نموراً كلما اجتاحتني سيول الذكورة. نحن نبتكر المواسم لتبتهج الأنهار، نؤجل الجبال لينام الماعز و نقترح ضفافاً أخرى لحمائم ستصل قريبا، هكذا نتعلم أبجدية الرغبات. تنزعنا السهول و تلفظنا الوديان، و في كل عربة نترك أصدقاء لنا علقت صورهم في الشبابيك المغلقة، فيجيءُ سائق يمرر قماشته الرخيصة على الزجاج البليل الخضل ليمسح القبل و النظرات و التحايا، و سنظل ننتظر القادمين بأعين دامعة أبداً نقترح لون شعرهم و تجاعيد وجوههم و مقاييس أثوابهم... هكذا كما لو أننا لم نودع أحدا.



سماء شط العرب

عين الكاميرا تبتسمُ لي، وأنت تمزحين بإصبع نضرة، و لكي أدنو منك رسمت برزخاً هو الحياء المتقطع في الصورة. كانت المنازل ذابلة، و أسماءُ القرى تُنسى و تندثر حين تجتازها المركبات، و فلاّحون طيّبون يبتسمون في المشهد، اختلف معك، لأنَّ البحر الذي تسمينه جهلاً بالبحر، يطبقهُ

الصيادون على ذراعيك. فيضيق، هذا الواسع يضيق، الذي لم تقف عليه امرأة بجمالك منذ عام، ومثل قبضة من حصاد ينفلتُ شعرك في وجه الغروب، أنشده الآن أن لا يضيق، فأنا محتدم زبداً و ذكورة.

ذات يوم سنأتي مرة أخرى، نختلق حججاً و ذرائع باهتة، نقترح أماسي، شطآناً و مراكب صيد، و سنجلس على ذات الصخور أو سيصحبنا ذات الحوذي، الذي ما زلتِ في مرآته تبتسمين، آخر حوريات البحر أنت، أشتمّك لأن نادل المطعم تأخَر، أنا جائع و أنت فرعاء، و لكي أودّعكِ طلبتِ ليموناً وهاتفا، كان السلّم مصعداً كهربائياً مفروشاً بحشد من الغيّاب، تذكرت كل الصاعدين للأعلى كيف هبطت بهم هذه السلالم، كيف تركوا السطوح و المنازل الوطيئة، كيف تركوا أياديهم معلقة و هبطوا في الغرف ليبتلعهم الأبد.

باب الخصيبي

أغلق راوي الحكاية باب سعادته فجأة، قال: أن إبنه حدّثه بحديث لم يسمع بمثله من قبل، قلت ماذا؟ أجابني: أنا حزين لأن أصدقائي غادروا إلى الموصل، قلت له مستغفلا: ولماذا يغادرون إلى الموصل بالذات؟ فيقول لي: لأنهم سنّة! هكذا ببساطة، وهل السنّة في الموصل غادروا أيضا؟ يقول لا أدري..

منذ متى تعلم ابني اللغة هذه؟ من قال له أننا شيعة أو سنة؟ من علّمه بأن البصرة مدينة شيعية لا يسكنها السنة؟

في لحظة بدنية تحسست جسدي، ابتدأت برأسي، كتفي، يدي وقدميّ لأعرف ما إذا كنت شيعيا أم سنيا ! فأنا حقا لا أعرف نفسي هذه بعد عشرة طويلة معها، مع هذا الحشد من اللحم والعظم والأفكار والأمنيات وغيرها.... لا أعرف ما إذا كنت مع هؤلاء أو ضد أولئك؟ بل لم أسألها السؤال هذا من قبل.

ذهبت إلى المرآة المغروزة في الحائط كالمنجل، وحدقت في وجهي وسألته، هل أنت شيعي أم سني؟ وما دخلك في الخلافة؟ما دخل الخلافة فيك؟هل كنت معهم في السقيفة؟ هل حاربت عليا حين كنت في جيش معاوية؟ أين كنت يوم الغدير؟ ولماذا لم يقتل علي عمرا حين وجده نائما في المسجد وحده؟هل أنت مسؤول عن لغة القرن الأول الهجري؟ هل كنت في جيش الحسين حين حزّ الشمر رأسه؟ من قال لك بان السنة سنة أبي الخصيب، الفلاحين الفقراء، صاعدي النخل إلى المشيئة ، متسلقي الأنهار النائية وراكبي السباخ كانوا في جيش ابن زياد اليوم ذاك؟ من قال بان شيعة الدجيل وسيد محمد وسامراء والدورة كانوا يجلسون تحت منبر علي حين كان يخطب بالكوفة ويأمر الناس بالجهاد؟من كان منا مع هذا من

كان منا ضد ذاك... من؟

إيه أيتها المدينة الفقيرة، يا قائمة الدهر ويا فارعة التواريخ.. من شق جداولك هذه كلها؟ هل زرع نخلك هذا أهل السنة أم زرعه الشيعة؟، هكذا توجهت إلى مدينتي التي أحببتها، والتي أوشك أن أكرهها اليوم، هكذا أردت أن أعرف منها هل شيد السنة أسوارك أم الشيعة؟ ومن غرس الصفصاف والتوت والعنب على شواطئك؟ ظلت حيرانة تقول لا ادري، لا ادري فتخر مغشية..

من سماك؟من كتب أسماءك في التواريخ والخرائط؟وكيف فكر هؤلاء؟ماذا يريدون منك؟ لماذا لا يأتون إلى أبى الخصيب ليروا بأم أعينهم كيف يترك السني بيته أمانة لدى جاره الشيعي؟ كيف يأتمنه على بستانه وزروعه وحيواناته وأثاث بيته؟ وكيف انهمرت دموعه وهو يودعه، كيف انسلت يده من بين أصابعه هكذا مثل خيط من حزن جارح.

أنا أعرفهم بيتا بيتا، كانوا فلاحين يعيشون على الثُمن (واحد إلى ثمانية) من الثمر الطالع لهم من تعب عام كامل، وكانوا صيادي سمك وورشان، جامعي حطب، وبائعي سعف وكرب وجذوع يابسة، زارعي باميا، وطماطم، وقثاؤهم حلو وطري، أما رطبهم فلا أحلى منه على وجه الأرض، كانوا ينزلون بمساحيهم إلى الأنهار في الصباح فلا يخرجون منها إلا المغرب فتفوتهم الصلاة، حتى أن الله كان يسامحهم فلا يعاقبهم على أوقاتها..كلهم كانوا كذلك، فلم يسمعوا بصفين، ولم يخرجوا مع الجمل، لم يسمعوا حتى بالبخاري، ويقولون ابن (سيَرَينْ) مفرد سير من الخشب أو الجلد، حين كانوا يأتون على ذكر ابن سيرين، الصحابي ومفسر الأحلام، ولا يعرفون شيئا أيضا عن عباس قمي والكليني أو الطوسي، ولم يغرقوا أنفسهم في بحار المجلسي.. فما من وقت لمعرفة هذه وتلك، لأن العمر نخلة لا تنتهي بالسماء، كما يقول شاعرهم الخصيبي.

تجمعهم شمس تطلع على رؤوس نخيلهم كل صباح وتغرب في ساعة واحدة على شطآنهم جميعا، مد واحد يروي أنهارهم الألف كلها فيدخل نهر السني ساعة دخوله نهر الشيعي، وإذا عطش أحدهم جاءوا له بالماء من كل الأنهار.

هل غادر فلان؟ نعم غادر ! وفلان؟ كذلك، الله أكبر وبيت فلان؟ أيضا...لا إله إلا الله..إلى أين؟ إلى الموصل ! إلى الموصل.. من لهم هناك؟

ماذا يفعل فقراء أبى الخصيب في الموصل؟ وسمرتهم هل أخذوها معهم؟ ولهجتهم ماذا بشأنها؟.... أين سيلقون بجبل الياءات التي بأفواههم؟ أين؟

إني لأعصر قلبي، إني أدميه، إني أكره مدينة الأجداد هذه، هذه المدينة تطرد أبناءها، ومن اكبر مخازيها أن يغادرها أهلوها، حتى ولو كانوا في طريقهم إلى الجنة.



فلاح

يقول ابني أن أهل الموصل ضيّفوا سنة البصرة وأعطوهم المال والطعام والسكن...لكنهم غير سعداء، هكذا يقول صديقه، فالموصل أرض جبال مرتفعة، ولا يفهم أخي من كلامهم إلا القليل، لهجتهم فيها قافات كثيرة، وأمه تلاقي صعوبة في فهم لهجة جارتها الجديدة، وأبوه حيران يجلس أمام داره على الصخر ويفكر بنخلة على النهر زرعها قبل عامين، لعلها تثمر هذا العام، ربما صار رطبا ثمرها اليوم.

يشتري أبوه الرطب من السوق ويقول لأصدقائه الجدد من الموصل انظروا هذا رطب البصرة، فيشم أمامهم كيس الرطب فيشهق بعبقه، ويقول: الله يا رائحة أنهار أبى الخصيب، الله يا رائحة البصرة، من يحملني الآن إلى هناك؟ أعطيه ملكا لا يبلى، من يأخذ بيدي إلى ظل نخلة في أبى الخصيب..؟ هذه الذكرى تربكني، يا ناس يا أهل الموصل أنا عمر من سعف وخوص وبربين، أنا صفصافة غريبة في بلد غريب.

يجتهد الناس من أهل البصرة كي يحصلوا على أذن من مجلس المحافظة يسمح لهم بمغادرة المدينة، فقد صارت المدينة لا تطاق، لقد قتلوا فلان، ووجدوا ورقة في بيت فلان تقول لهم: الرحيل أو الموت، .. وأرسلوا طلقة في مكتوب إلى بيت فلان إنذارا بالقتل أو الهجرة، هكذا ببساطة صار أمر مغادرة المدينة من اليسر بحيث لا يكلف سوى ورقة يخطها متطرف أسود القلب، أو عابث لا يرعوي

يقول ابني : والحكومة أين من هذا كله يا أبي؟ فأقول والله ما ادري يا ابني الدينا حكومة أم لا؟

يدخل البصرة سرا، الخصيبي المهاجر، القادم من الموصل، خائفا من خياله الذي يتصدع على صفحة الماء، ومثلما صعد الباص الخشب سرا، قادما من هناك، نزل بغداد خائفا أيضا من ساحاتها الموحشة، من كراجاتها المتربة وناسها المستريبين.

هكذا دخل البصرة مستريبا أيضا من دروبها وسككها وبيوتها المرتجفة..وكأنه لم يدخلها من قبل بقدمين حافيتين وقلب معطر.

وبسرعة البرق مر أمام بيتهم، ليتأكد من أن الطلقة لم تخترق جسده، وأن السيارة البيضاء ذات الأرقام الممسوحة لم تصادفه، وان الرجال الملثمين الذين بداخلها دائما، لم يكونوا بداخلها الساعة هذه، كذلك تأكد أنهم جميعا لا يرتدون البذلات العسكرية، حتى أن السائق كان نائما، وغير ملثم.

جلس الخصيبي خلف حائطهم الطين، قبالة النخلات الثلاث، ليس بعيدا عن جسرهم الخشب، وظل صامتا يتسمع إلى وشوشة الماء الذي يصعّده المد، مصغيا بحواسه الست إلى العجلات التي تمرق مسرعة على الإسفلت النائي..

سرب إوزات كان عائدا من الشط الكبير، ورهط صبية كانت ظلالهم تتقافز في الماء، ثيابهم بيضاء يابسة، وجيوبهم مقدودة مزاحا وضحكات، كل شيء يبدو هادئا في القرية القديمة، الحيطان كما هي بشبابيكها العالية، وأعواد الحلفاء الناتئة من بين فروج الحيطان الطين هادئة أيضا، ولا تضمر بغضاء لأحد، حتى النخل اسكنه هدوء الريح وصمت ما قبل الغروب..لماذا إذن يدخل الخصيبي البصرة خائفا.

من عُطل في خاصرة بيت الأبقار كان يتخذه مسربا للحديقة تسلل الخصيبي إلى الدار، وفي زحمة الحاجيات التي تركها مبعثرة هنا وهناك راح يتعثر، فسقط نصيفه، سقطت شمس آخر النهار على المبنى، وما أن شمت الحيطان رائحته، رائحة الرجل الغريب وهو ينهمر على الأرض شفت، راعه صمت المكان، ووحشة الثياب المتروكة على الحبال، الصناديق الخشب، والأواني النحاس، طاسة الورشن، وقميص ابنه المهجور على حافة السرير.

ظل يدخل دارا ويخرج من أخرى، يفتح شباكا ويغلق آخر، يوقد مصباحا ويطفئ آخر..هكذا مثل مجنون في منزل كبير، لا يعرف ما يفعله، لكنه يريد أن يفعل كل شيء..كانت يده تمر على أكرات الأبواب واحدة إثر أخرى، يخلع ثوبه حين كانت تهب النسمات الرطبة، وينشره قبالة القمر الموحش الغريب، حبات ملح تحت الإبطين الشائخين، ورائحة سمن في المطبخ المهجور، أراد أن ينادي أحدا، فتذكر انه الوحيد في الدار هذه.

لا تستعن بيدك اليمنى على يدك اليسرى، ولا تأمر قدمك بالسير إلى بلاد ليس فيها نخل، لا تبتعد كثيرا عن النهر وان جف ماؤه أو كثر الخائضون فيه، لا تهجر دارا أول من تعفر بترابها خدك، حتى وإن هجرك قومك، ويغضوا إليك المكان الذي هو بالمكين دائما.. ولا تدخل بيتا لا تشم رائحة أجدادك فيه وتذكر :إذا غربت شمس على دار جارك اعلم أنها ستغرب على دارك. هكذا علمنا الأولون، والصبر مفتاح لكل باب.

باب أم النعاج

قلت له : أهذا كتابٌ للفرح أم للحزن؟ ها أنت تفتح باب الفرح ساعةً فتغلقه نهارا، ثم تفتح باب الحزن عميقا، أنت تدمي قلبي، هل عادوا من الموصل، فقال :عادوا.تركوا الكثير من أحلامهم هناك، لكن لا تضجرمن الموت أكثر من الذين ماتوا على الأنهار... فتعال، ندخل أمَّ النعاج من بابها الذي على الفرح إذن، هذه المرة، كأنه يقول لي ولها باب آخر على الحزن..

حين يمضي السراجي (النهر) مانحا قفاه الشط الكبير ,شط العرب، سيكون بذلك قد تمكن من النخل ما يكفي , وما أن يبلغ (أم النعاج) حتى يشق عطفها نصفين : أهل نخل وأهل بر، وجوه تشبه أعناق اليقطين الطري، يجمعهم مسجد فقير واحد، بابه خشبات هالكة ومسقف بجذوع وقصب، لم أرَ جسرا آخر غير جسرهم القريب من بيت عبد الصمد الشاروح ، حيث ينتهي النهر وتتفكك الجذوع.

ما رأيت كلابا تنبح بعضها رغم اشتباك الحلفاء والصفير الدائب للقصب، لكن النهر يضيق كلما توغل في الصحراء حتى انك ترى القرع الأحمر وقد تسلق اخصاصهم التي على الضفتين فلا تكاد تعرف أين ينبت؟ ومن زارعوه؟ أو إلى أين ينتهي الماء؟ سترى القوارب مربوطة من حيازيمها على الجرفين الأخضرين، لكن النهر يظل يسير تاركا جلده الرقراق ينسلخ مثل أفعى باردة ملساء تدس رأسها في الرمل.

يمكنك ان تأتى أم النعاج من جهة البر إذا كنت قادما أليها من الطريق (الفوك) أو من بلدة الزبير أو من البر , المحيط بها , والذي قد كان عبره المئات من عرب الحويزة، شاقين الطريق إلى الخليج أو قادمين منه، ولا اعلم لماذا كنا نسميهم (الكعيبر). كذلك يمكنك ان تدخلها من الماء حين تكون في قارب ، وسواء لك أقصدتها للنزهة أو لزيارة أحد ما فانك لن تفقد

متعة السير في النهر، بل سيبقى للرحلة تلك طعم التوت الأحمر في ذاكرتك.

سكنها (بيت العقرب) و(بيت ليلي) و(بيت ملا ذياب) وأقام (الشريفات) عند مدخلها من جهة الصحراء اخصاصهم وممالحهم، فإذا رأيت ملثما في أحد طرقاتها الكثيرة فتش عن خنجر في يده، ستراه ذاهبا ليغيبه في نحر أو في نهر. وسيمر بك سائقو الدراجات الهوائية يشامغهم حمر، وعيونهم نصف محترقة، أولئك لصوص الأبقار الذين يعرفون لصوص الدواب، وما الملح لك اقرب من التمر، ولا التمر ابعد عنك من الملح، وسيان آتخذت، فانك حتما ستصل ضريح السيد عدنان.

قبة من الطين المنهدم، وخص منزوع الباب، يفصل الحوش عن كيزان الماء الخضر التي تتسوط المصلى الصغير فيه، هذا الضريح البالي هو ملتقى الطرق الثلاث : طريق البصرة – السنيدية – الاجبال أو– المطيحة، ظل يؤوي الخارجين في الفجر، الذاهبين إلى معسكرات الانجليز في الشعيبة، والملتحفين الليل، البائعين أبقارهم في سوق الصفاة.. فهو ملاذ عن المطر والغبار ودوريات الجمارك وقطاعي الطرق، من أهل سكة العون، الخارجين على أعراف المؤسسات ببنادق صيد قديمة وخناجر صدئة، مناجلهم أهلة غامضة وأوهامهم متصلة..

تدنو نوافذهم من الفجر فتشم رائحة غدر في بساتينهم، تبتعد النجوم عن أبوابهم حتى لكأن الليل لا يوجد عند غيرهم، فلا ترى نجمة في حضن جدول أو في دارة امرأة، كانت تقوم على سدانة ضريحه العلوية أم زهرة، ولا يعرف العامة لنسبه أحدا، غير ان السيد عدنان الحقوا باسمه كلمة الياسري، فهو إذا لعمار بن ياسر الصحابي المعروف.

وفي انعطافة الجسر حين تميل بك الطريق، وأنت في مقعدك الوثير في العربة، لن تجد ما تمسك به يدك لتستقر، ولتمنع جسدك عن انحناءة طويلة كأنها الغمد، ولنقل انك استعدت استقامتك، أو ان الانعطافة انتهت، فانك

الآن في نهاية الأرخبيل، أو في بداية سهل فسيح ومعشب، هناك في فسائل التمر الملفوفة بالبردي نور مهمل، حزين، وبقايا ليل لا يأبه له أحد.

في الأنهار النائية، آثار أيام تمر كلما دنوت من الفجر، على أريكة الرصيف الفارغة عاشقان يحتسبان مرور متطفل.. وفي نهاية سور المدرسة صنبور مكسور ظلٌ يشخر الليل كله بماء اسود، عليك أن تعرف ان الجداول التي توزعت النهر منذ مبتدئه في بيت آغا جعفر هي نهر عسكر (ولنا مع عسكر هذا حكاية أخرى سنأتي عليها حين نمر بكتاب الفريج) وهذه الجداول المسماة في دائرة الطابو أكثر من عشرين جدولا، أعضمها :نهر مركب والابتر والاردبه والوسطاني وخريبط والسروط وأبو الكشك والمييدة والبيريف هكذا بهذا الحشد من الياءات كما يحلو لأهل أم النعاج تسميته.

وهي تسقي البساتين المنتشرة على أطرافها من أملاك بيت العوجان



المنزح

والبابطين وأبن عثيم والراشد ومحمد الخالد وغيرهم أسماء كان لها وقع في أذهان الناس آنذاك، وتذيع الألسن مآثرهم وفواحشهم، لم يعد ذكرهم الآن يخيف أحدا، فقد عفر الدهر أرماسهم برائحته، وهدأت شواهد قبورهم بترابها النائي فقد أبدل بهم آخرين وأصبحت أملاكهم (... بيد البلى نهب).

سترى ابنا لفلاح هنا، جبهته مالحة، وذراعه سمراء نحيلة، يمرح في حقل البرسيم مع صبية له، حيث لا أحد يسر الفاحشة، يأخذها خلف سوباط التمر وعلى القصب المائل، عند الظهيرة، يزرع في بطنها طفلا بلون الماء، لا يشبه أوراق التوت التي اصفرت هلعا حوله هو لن يسميه، ستسميه الجداول فيما بعد، سيأخذ فيما بعد منجلا وفروندا من القنب، سيمتلئ شبابا وعنفوانا وحين يخمد النهار، ويرتفع المد ستسمع زقزقة قلبيهما مع وشوشة الماء وفي أطراف السعف الياسبة مع غرغرة النور في الجداول القصية ومع انغراز القبلة في القبلة، وسقوط أساورها الشبه ستسمع همسا وبكاء غير منقطعين، فهو الآن يضفر لها جدائل من ألف ليلة وليلة، ستضعها تحت وسادتها حين يهزمها حلم غريب، سيجلس هو تحت جناح المسناة الرخص، يفكر بإغواء جديد لها، سيقول لها في الصباح: أعطني يدك لأريك كم دجاجة في بيتكم، فتمد له يدا ناحلة مثل عرجون اخضر، وتتبعثر أساورها الشبه، البيض والحمر والصفر ثانية، ولمّا يتم مسكهم، ستسمع صهيل أفراس بعيدة، سينبلج أفق من قطط نزقة، فتشرأب غابة نخل، ويضج سنديان، ويختفي جندب.

هو الآن يوسع جيدها قبلا وادمعا، فتطير فراشات ويحلق إوز وتقوقئ دجاجة، أترين سحبا تمشي؟أتريدين ان أحدثك بأكثر من ذلك؟ أكثر من هذا السور الذي يلف بستان بيت خالك؟أمك تريد أن تذبح تيسا على قدمي قد يرى البعض أننا حين تحدثنا عن أم النعاج وهي في أعالي النهر عدم حديثنا عن السراجي وهي في مبتدئه، بلى سنتحدث وستظل الحكاية كما

هي، نهر يبتكر قريته، قرية تبتكر نهرها حتى يطلع قمر الحكاية الأولَ، قمر من ماء ونخل سيطلع أبدا على الطرقات التي يغطيها ليل شتوي طويل ليل لا ينضب فيه زيت الفوانيس.

(... والتقى السَروجي بمسجده، وموضعِ تعبّده، زاهدا... فوجده متعبدا، يصلي بين مريديه وأتباعه، حتى أكمل الخمس، وصارَ اليومُ أمس...)

بـابُ الـسَّروجـي

سكت راوي الحكاية طويلا قبل أن يقول:

على مدخل النهر ـ السرّاجي ـ أواخرَ القرن التـاسـع عشر، أمر ثريٌّ يدعى (يوسف بـاشـا أحمد القرطاس) ببنـاء قصر لقرينته، من إرثها الآيل لهـا من والدهـا يوسف بن قـاسم بـاشا الزهير، لم يكن في البصرة على عظمهـا آنذاك مثله، وظلّ القصر هذا شاهدا، يروي لنـا، نـحن الـنـائمين على وسـادة المدينة الخضراء، مـا لم تُكْمِل روايته شهرزاد في ليـاليهـا الألف، ولّما تمكنّا من تـأمّل مشاهـده، زاد الأهـلُ علـى الحكـايـة سطـرا، ورقـة، كتـابـا، فـصـارت أحلامنـا أكبر من غرفـاته المـائلة، أعلى من شرفـاته، التي تطلُّ على الشطّ دائماً.

إختفى أبو زيد السروجيُّ في المقـامـة الخمسين، ولـم نسمـع عنه، لعلّه غـادر البصرة عبر مـحيطها المـائي، أو انه لم يغـادرهـا، واكتفى بـأن زرع نـخلة أخيرة عند مدخل النـهر المسمّى بـاسمه الآن، والمحرّف قليلاً ـ السرّاجي ـ وهـنـاك أذنت لـه التواريخ، ليصبح واحداً من رواة البصرة، مشتملاً على أرضهـا ومـائهـا ونخلها. نعيد، نـحن، الرواة المتـأخرين سرد حكـاية تجواله في الأمصـار، وتقلّبه في الألواح، ربمـا نزيدُ سطرا، وقد نكتفي مثله بـحكـاية أخيرة، تحت نـخلة على شط المدينة. سَروج أبي زيد.

هكذا كنتُ أحمل كتـاب سيدي الجـاحظ، ألف ليلة وليلة، شنـاشيل ابنـة الجلبي، وأترك جسدي الطفل مستريـحاً تحت إحدى نـخيلات القصر، وقد هـجـره أهـلُـه أواخـر القـرن الـمـاضي، ولـم يـبـق مـن الـفـلاحين الـفـقـراء غـيـرُ أشبـاحهم، تـخطُفُ غـصنـاً يـابسا، أو تشتل ظلا، هـنـا أو خيـالاً هـنـاك، لتنفي عن المكـان تـهمـة الوحشـة والغربـة التي خلّفهـا رحيل النبلاء الأغوات، وفيم كـان النـاس يمتدحون عيد النوروز بقنـاني خمر محليّ وأوراق خس وقشور

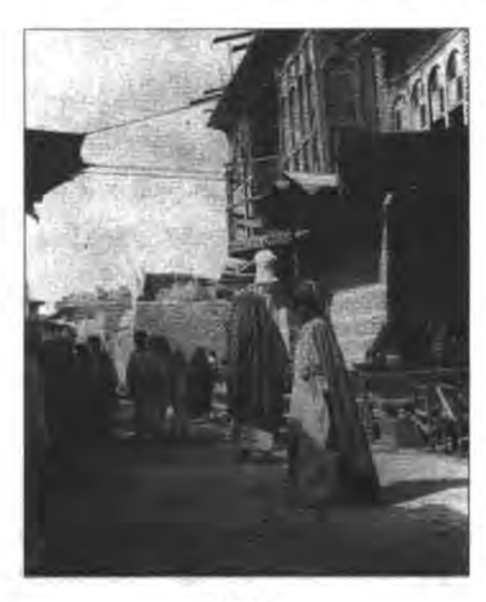
وفستق وحلوى وبريقال، كنت أمتدح العيد بقصيدة لم أكملها ذاك المساء، ولمّا كانت الشمس تذبل على القصر وحدائقه وأسديه المصبوبين على مسنّاته منذ نهاية القرن ذاك.

أخذتُ خطوي للبيت، حيث لا يشغلني من أمر اليوم غيرُ اكمال القصيدة... وفي الهزيع الأخير من الليلة تلك أنهيتها، ثم سميتها ـ القصر ـ وقد قلت في بعض أبياتها:

كلّ يوم نحشُد أعناقنا

ونسير بها فاتحين...

حملتُها في الغد للبريد، وقصدتُ بها مجلة الأقلام، التي كان يرأس تحريرها الشاعر علي العلاق، فيما يعمل الناقد حاتم الصكر مديراً للتحرير،



سوق قديم

حيث كان يحاول ان يوجهها لصالح الثقافة الحديثة، لكنه لم يفلح في مقصده بسبب عنت موجهات الثقافة آنذاك، انتظرتُ سنة، وذات يوم مررت ببغداد متعجّلاً كأبي زيد، صاحبي، وسألت الدكتور الصكر – ولم تكن لي به معرفة من قبل – عن القصيدة، وقد لاحظت انه سُرَّ بمعرفتي، فذكر القصيدة مهتماً بها، معجبا، وكذلك نقل لي إعجاب الشاعر الفلسطيني خيري منصور، غير انه أبدى أسفه لعدم تمكّنه من نشرها، وأشار عليّ فيما إذا استبدلتُ: نحشّدُ أعناقنا بـ (نحشد أحلامنا) لأن رئيس التحرير يخشى من تأويل الآخرين لهذا البيت، الأمر الذي قد يوقعه في مأزق، هو في غنى عنه.

كان نشر القصيدة في مجلة الأقلام يعني لي الكثير آنذاك، ومدعاة سرور أحلم بها، غير أني أردت نشر القصيدة كما هي، غير منزوعة القصد، باهتة. وانتهى الحلم، مرت سنوات والقصيدة مهملة في أدراج مكتبتي.

وفي غفلة من يد الشعر والحلم والغبطة، امتدت يدُ الحكومة إلى قصر آغا جعفر لتحوّله إلى حانة، وملهى ليلي، صار صاخباً بالضباط السكارى، القادمين من جبهة الحرب مع إيران، وبمخموري الوعي، المهزومين من ذواتهم، صاروا يبولون على عشبه، ويقتلعون زهوره وآسه وخطى الأمراء الأغوات التي شرّفته ذات يوم، وحين دخلت الحرب العشار من جهة البراضعية، استباح الجند ماظل من غرفاته وشرفاته وفيافيه، ولما وصلت الشط صارت ممراته مزاغل وسواتر وخنادق يطلقون منها الرصاص على الزوارق والجنائب التي يسرّحها البصريون في المساءات، تجاه البحر، لتأتي في الفجر بالسمك والثمر والأترجّ والقثاء.

ولمّا لم يكتفِ الدكتاتور بذلك، أمر خاصة جنوده باحتلال القصر، وطرد الزهور والشعراء والفراشات والصباحات من أركانه كلها، ثم طرد جنده ليستولي بمفرده عليه، وحين ملأه بالإسمنت والحديد والصوّان، وصارت

الحدائق التي أنبتها فلاحو قاسم باشا الزهير ومن ثم آغا جعفر مطارات لطائراته الخاصة، فظل يهبط فيها كلما طالت الحرب، وامتدحه الشعراء، وحين وجد ذلك غير كاف لجبروته انتزع إسمه، فسمّاه قصر صدام، وراح العامة والخاصة ينسون شيئاً فشيئاً الاسم الأول للقصر... ها، يا أبا زيد السروجي ماذا تكتب بعد...؟

ذات يوم، وقبل اكثر من سنوات خمس، وحدي، أخذتُ الطريق الترابي، طريق الطفولة القديم ماشيا للقصر، حيث كنت أسلكهُ صبيّا، وقد تمكّن الجنود البريطانيون من طرد الشرطة البعثية التي تحيط به، بعدما دخلت دباباتهم من البوابتين اللتين لم يشاهدهما أحدٌ منذ أن استبدلَ صدامُ القصرَ بقصر صدام، كانت الطريق صعبة على مثلي، فقد كنت استدل عليها بالكاد، لاختفاء المعالم التي كانت تحفل الذاكرة ذات يوم ، فلا نخل اعرفه، ولا قصبة في خص أميل بوجهي عنها، ولا احد من بيت الشيتي، لا طفل من بيت فاضل مبارك، لم يبق أحد من هؤلاء يقول لي : لا عمي الدرب مو منا... لقد هدّ الجنود العربُ والبريطانيون الحيطان القديمة كلها..

أردت أن أدخل القصر من بوابة مثلومة، سور منحطم، فتحة احدثتها قذيفة، أ لكني لم أفلح، كان الجند أكثر من أن تهزمهم قصيدة وأعتى من عنق محشّدة...

ظلّت السماء تمطر ذاك اليوم، تبلّل العشب، الممرات الضيّقة، الأجاص في الحديقة الغائبة... استسلمتُ لقطرات البلور التي تسقط على القصر (المعسكر)، وانكسر غصن ذلك المساء على دكّة المسنّاة القديمة، حيث تأسر الأسود، المعدن لبُّ المستعمر وجنوده، الذين لا يحفلون بالقصيدة بكل تأكيد.

باب عبد العزيز

مثلما أختفى السروجي في مقامته الخمسين، انقطع راوي الحكايات عني، غاب، كان يغيب الشهر والشهرين، المرة هذه اطال في غيبته، وبعد سنة، وبينا كنت على جادَّة الضيِّق، بباب العَوز في أبي الخصيب وجدته، فما صدقت حتى سألته عن باب الماء الذي يلي باب اليقطين من جهة النخل قال: دعني وشأني...

فأنا كائن ارضي، مشدود من رسغي، لا أختلف عن اللوبياء التي تلتف على الجذوع، ولي وجه من لبن وقمح، وبي أسى نخلة نائية، ومثل يدي أجنحة العصافير، قصيرة وواهنة، وإذا اختلت قصبة بروحي تسمعني أغاني لا تعرفها إلا الأشرعة المهزومة، وحين تلسعني الشمس أدفن جسدي في أضلع امرأة، وحدها تشعرني ببرودة الأشياء، عندها احسُّ بأن الحياة ممكنة، والأمل واحد من ينابيع عدة، ليس الموت بينها، فلا تسألني عن بيبان لم أدخلها.

وبحماسة من إشتد عضُده قال : ما زلت اقتفي خطى أبى وأخي، اللذين تركاني ومضيا إلى التراب، التراب الذي نصنع منه نشيدنا الأبدي، احب الأرض لاني ابحث في أعطافها عن الذين احبهم، أريدهم كي اكمل معهم مسراتي الناقصة، مسراتي التي لم تعد تشرق عليها الشمس كما كانت معهم.

هنا في هذه الأرض التي تريك الموت في حفنة من التراب مثلما تريك الآس والأسى معا، الآس باحتفاله الأزلي الأخضر، والأسى بتاسوعه وعاشورائه، وما زلت أرى بعضا من كتف أبى تحرقها الشمس فيلوذ بعباءته صيفا أو يهبط في النهر مثل جذع محترق.

ما اقتربت يوما من نخلة إلا وشممت في جذعها رائحة أحدهما، إلا وخشيت أن تسألني عن واحد منهما، وما وطئتْ قدماي ترابا إلا وشعرت بحرارة إقدامهما تصّاعد في نسغي مثل نهر من آثام، حتى الآن لا اعرف رجلا بعمر أبى في عويسيان كلها، يحب الشعر كحبه له، صغيرا، ربما قبل القماط، كنت قد سمعت منه قصائد وابيات غزل وتعب ومحّبة، وأول ما انتهت إليه أسماعي البيت الذي ينسبه مجازا لأبي نؤاس:

(نسجَ الرِّيحُ منَ الماء زَرَد   أيُّ دِرعٍ لقتالٍ لوْ جَمَدَ؟)

قلت إنك تتحدث عن أبيك إذن، لم ينتبه، فتركته، يكمل : لا اعرف كيف وصل هذا البيت من الشعر إليه وهو الأمي، أية ذاكرة شعبية كانت تتصل به.كذلك لم اسمع صوتا أشجى من صوتة واقرب من الأرض ولما كان يقرا من نغم (الحكيمي أو المخالف) كنت اشعر برعشة التراب ونداوة الريح، كنت أحسها تحفر في حنجرته ترعا وانهارا، ومعه كنت ادخل غابة حزنه الرائعة، ولم أر رجلا يتحدث عن نفسه اقل منه، فما سمعت منه كلاما عنه، وهو كبير اخوته وابناء عمه وأعلمهم بدينهم ودنياهم كان يترك الناس تقول.

لم يتخلف عن صلاة جامعة قط، ولم يدع منبرا للحسين إلا وكان عند قائمه الأيمن ولم تخفق راية للعشيرة إلا وكانت على رأسه، ولم يترك مسناة إلا وكانت ميضأة له.ولا مرقاة إلا وحيعل على سطحها. وإذا قام لصلاته رحت اسمع حفيف الجنة في اعطافة، وارى أغصانها تتدلى عليه وكانت الملائكة تجاهد في رفع جبهته عند سجوده، حتى أنها كانت تزاحمه على مصلاه، وإذا اطفا شمعة محرابه تضوع العنبر من فتيلها، وإذا غادر أوحش المحراب فتبكيه أركانه.

في نهاية المدينة من ناحية الشط، سوق قديمة اسمها سوق القناديل يؤمها الناس وقت الغروب يبتاعون فيها الفتائل والزجاج، الزيت والورد

الأحمر والنيلوفر، النرجس والليمون المركب والياسمين، الريحان المكي والعطور والعنب. وبه يصنعون القوارير من الزبرجد، ويبيعونها بالوزن، كان لأبي منزل هناك، في قانصة الظل تلك، حيث تنغرس حمالات الجرار، منزل لا يباع فيه سوى العطر المخلوط بالآس، وفي دارته السفلى يجلس الخياطون فيما يقبع في دارته العليا النساخون والرفاؤون وباعة اللبان.

وفي حديقته الواسعة آرائك فسيحة، ملاعب وممرات ضيقة من الآس والنرجس، يسير بها العشاق والشعراء، كان عكازه من العوسج، مجزعا في قبضته ومنتصفه. هكذا رحت معه أرسم الأبواب والشبابيك التي تطل على الماء والأنهار الواسعة وتجوب أمواجها سفن علي بن محمد بزنوجها الفقراء، بائعي النهارات المشمسة، كان يثلم نهاية الحكاية حين كنت أترقب خاتمتها السعيدة.

وأنا طفل رحت اسمع حكايات الليالي الألف وليلة التي لا تنتهي بعد أن ملأ خيالي بأسماء وشخصيات وأماكن ما زلت ابحث عن حقيقتها بين طيات ثيابه التي تركها فجأة، وفي الحياة التي اتسعت كثيرا الأيام هذه، لكني لم أر شيئا.... غير أن ذاكرتي لم تزل تحفل بها، بل هي الحقيقة الوحيدة التي وجدتها في كل ما حولي، كان اعلم أهل قريته بأنسابهم واليه يحتكمون في صلاح زيجاتهم، وفيما يشتجر بينهم، واصول أشجارهم وأبقارهم وانهارهم، وكان لا يجارى في عمل من حراثة وكري، يقلم كرمه بنفسه ويقري ضيفه بيديه، وعنه أخذت الناس قمريات العنب، وصوابيط التمر والبطيخ...

الآن اقلب منجله ومسحاته ويشماغه، اقبّل الأصابع السمر النحيلة التي كانت تمسك بها، وتجعل من الأرض حقلا ومن السماء أغصانا وزرقة، امرر شفتي على التاريخ المذهب للأشياء، على الأسطورة الخالدة، على الذراع العفيفة الطاهرة التي كانت تعصر الشمس وتلقي بها في الترع والأنهار

والوحول، ولطالما سمعته وهو على أريكة مرضه يردد هذا المقام من نغم المخالف:

أولاد برخ البروخ المطلجين احنه
واركابنه كنطرة لعيون صاحبنه
ولو راط عود السفرجل ما نروط احنه
راحت رجال الشجاعة فكاكة المحنة
وظلت بس غنم سارحه واذيابه احنه..

ثم يعقبه بالبستة الخصيبية الأثيرة لديه:

وليد وأمه مربيتــه نكش البحر لاطيتــه
هليله كمرنه مصيف وعسكر بالفريج مكيف
شوفو كمرنه مطوح بس هل الفصل نروح

مروءة كان يترفع عن ذكر معايب الناس، يتحدث عن أهل ديرته (قريته) على اختلاف مللهم ونحلهم، كأنه يتحدث عن واحد من أهل بيته، أو نهر من انهارهم.

ذات يوم جئته، حاملا ورقة صحيفة، قصصتها على عجل، وقد نشرت أولُ قصيدة لي، ، أخبرته بذلك وأنا لا اصدق سروري بنشرها قال : ارنيها (وهو الأميّ) وضعتها بين يديه، بعد أن فرشتُ الصحيفة كلها على حصير الخوص الذي كان يجلس عليه، قال : أين كتبوا القصيدة؟ فأشرت أن هنا، فجعل يمرر أصابعه على حروفها، ويتفقد أبياتها كما كان يتفقد أشجاره قبل قليل، بل ظل يمسح على الحروف كما يمسح على ظهر بقرة أجهدها من عجل حنيذ، قال : أين كتبوا اسمك؟ فأشرت له المكان... لا اعرف سعادة له كالتي كان فيها اللحظة تلك، الآن، وهو يمرر أصابعه على اسمي وقد قرنته باسمه الميمون أشم رائحة تراب آسر هو التراب ذاته الذي ترزح فوقه

شاهدة قبرك، هناك في الوادي البعيد حيث لا أحد بمقدوره رؤيتك.

سلاما لأصابعك يا عبد العزيز، وهي تبارك اسمي وتحنو عليه، والله للمسه منك اليوم هي عندي أغلى من أمجاد الشعر كلها.

الآن وأنا أشيعك إلى بارئك للمرة الألف أعيد كتابة أبيات كتبتها فيك ذات يوم أثلجت الدنيا علي :

(شيخ الفلاحين يموت
شيخ الفلاحين قليل الموت
شيخ الفلاحين
شمس تتفرقد في تابوت).

باب الشاعر

ترددت كثيرا قبل أن أسأله عن الشعر، لعلمي بعزوف دور النشر عن شرائه، وبتراجعه في المطابع الأيام هذه، لكنه حين ختم كتاب عبد العزيز بأبياته التي تشبه التأبين قلت أسأله وإن عنَّفني، سأطرق الحديد وهو ساخن، وماذا عن الشاعر؟ فقال: تقصد الذي إحترق بنار كلماته، أم الذي وقف يتفرج؟ قلت الشاعر... فقال:

ذات يوم حين يفرغ الشاعر من كتاب مذكراته، سيتذكر . وهو آخذ طريق عودته من المطبعة بأنه نسى بعض أزمنته، هناك أماكن كثيرة لم يدونها، أوراق لاتقل أهمية عن أوراقه هذه التي دفعها إلى المطبعة، كان كتبها هنا أو هناك، في هذا البيت أو في تلك الحديقة، على هذا الرصيف أو عند تلك المرأة... وبين أن يقنع نفسه عائدا بالمخطوط من بين يدي المصحح ويسحبه من أنياب الماكنة التي توشك أن تدور تروسها وبين اطمئنانه بأنه سيعود إلى تلك الأوراق في مخطوط الجزء الثاني الذي لم يكتب حرفا منه بعد، سيكون الوقت قد اتسع كثيرا أو انغلقت نهائيا هذه المسافة (البرزخ) هي ساعة تعترك فيها الذاكرة، وهي إغفاءة لقلم قد لا يجرؤ ثانية على التدوين.

تلفت الشاعر كثيرا لكلمات المديح، ولمثلها من الجحود عبر متوالية النجاح والإخفاق، وعبر تنقله في الفكر والسياسة والمواقف فقد وجد نفسه فجأة على المرآة، شعر ابيض، عينان سائلتان وعنق ذابل بربطة مائلة يصلحها فلا تستجيب، ويصلحها فتنهدم مع اليدين المعروقتين والياقة التي أدبتها المكواة وبين أن يخرج نفسه من خزانة الملابس وبين اصطفاق الباب خلفه لحظة مناسبة، يتأكد فيها من نقوده، منديله، نظارته، هوية التقاعد، علبة السجائر و المسبحة، أشياء عديدة صار لها معنى في حياته

مثل قصائد مفقودة أو زوجة غائبة.

سيزحف مثل ضب هرم باتجاه المقهى أو الشارع متأملا الحياة الغريبة التي تبدلت سريعا من حوله بعيدا، عن النهر حين يأخذ الممرات المحاذية له، تحت الأشجار القديمة المحشوة بعصافير الفجر، تفزعه العربات التي تخطف مسرعة، عكازه ترتجف، ويداه باردتان، وإذا بادره أحد بالتحية سيرد متباطئا، متفرسا غير متأكد من معرفة الناس، تائه في الزمن...

الشاعر الآن يترك الطريق إلى المطبعة، آخذ خطواته للبقال القريب من المنزل، واثقا هذه المرة، ان بإمكانه أكل خوخة، وهو على السلم، صاعدا بصلعة أعلى الرأس، أيها البائس ايليوت : لقد علمتنا أن نكره ونمضي سريعا للفراش، تاركين البحر للحيتان العملاقة وللغرقى، أما نحن فقد دب الوهن سريعا لأقدامنا، وها نحن نهرم مثل أغنية قبطان حزين.

مع كتاب عند رأسه أعلى السرير، وحيني ينقسم الليل على وسادة وحيدة في سرير عريض بارد، يفتح الشاعر مذياعه ويغلق النافذة وهو يقرأ، هذه العادة السيئة من الصبا وهو لا يقرأ في المكتبة أو في غرفة الضيوف، مضى قرن وهو يقرأ مستلقيا قرأ الكتب الأولى وكتب الحروف الأولى مستلقيا في غرفة مهجورة آخر البيت، وحيدا مع اشتجار الألم والخوف والفرح تعلم استنطاق المعاني ودباغة الورق وارتباك القصائد فلا شيء احب لروحه من رائحة الحبر ونبش المجلدات وتصفح الألواح المهملة، إذ لم تزده كتب الغريب والوحشي إلا غربة ووحشة وكذلك فعلت كتب التجاريح فزادته جروحا، ولم تزده كتب البيان الى ضلالا وتيها.. ولعله كان يردد مع نفسه قولة الرجيم آرثور رامبو: أن تحمل على ظهرك طينا خير لك من حمل الكتب.. لكنه دائما يقول: الكتب مثل النساء، لكل واحدة رائحة ولون خاص وطعم يتباين من واحدة لأخرى هكذا حتى يستولي عليه الليل ويغطس في القطن.

نام غصن عن عندليب، وفاح مطر على آس، وتهدمت حانة في مفترق، وأنت تجوبين الحدائق المهجورة، تشربين الرسائل القديمة والهدايا، تفتحين النافذة هذه وتغلقين البحرذاك، وحين تنبحك ذكرى الشاعر، قصائده، كتبه وبطاقاته، تمضين مسرعة لمصحف ميت في المكتبة، وببلادة مفرطة توقظين طاووسه الأزرق الخرف، تراه كبر هذا العام؟ لعل السُكر زاده طولا، أو نبت على ساقه ريش جديد، عمر ينقضي ومرآة تهرم وأنت مشدودة من شعرك - الذي سقط عليه الثلج باكرا هذا المساء الى الباب – هل سيطرقه؟هل سيقطع آسا ليرسم حديقة على قميصي؟ هل يجن الجسر ثانية؟ كان حفيف ثوبي يذهله فمات، وهاهو يشيخ مثل فخ في غابة مهجورة، لا أحد يستفزه، وقد أعطيته النفور والخوف والذل حين أعطاك الآس والشجن والذهول.. يا امرأة!

الشاعر يلف مخطوطة الكتاب الثاني، ويمضي للمطبعة وئيدا، يدلف الشارع، ولكن بخطى ناقصة هذه المرة، اكثر غموضا، لعله اكمل الأماكن والأزمنة والنساء ولم ينس أحدا، وفي العتمة حيث الأشجار والظلال والإسفلت يتفلت من الشمس وهيج، وتتمرد أمنية فتأتي القصيدة، الشاعر يتذكر فتسقط ورقة تقول :

سوّي شَعرك أمامي
احب الشمس غريقة فيه
احب الياسمين مباحا
تحت ذراعيك
احب السماء مفتوحة
على صدرك الأبيض الرخو
احبك مطرا
يتلعثم تحت نافذتي

فأنا صفصاف غريب

وحدي، أتعلم غيابك كل ليلة

يندلق ظل الذكرى، وينشطر كتاب الروح، يأخذ العامة حصتهم أرغفة وخضارا وشرائح لحم ومركبات بينما يحتفظ الشاعر بالمطر زادا في خزانة الألم وحين يطبق الليل أجفانه يكون قد ظل من كأس الفرح القليل على حافة السرير الميتة.

باب ابتكار الفصول

حين فتحت باب الشعر عليه، فاجأني بأنه يعرف بيبان الشعر معرفته مفاتيح ومغاليق بيبان أبي الخصيب، قلت من الذي إبتكر الفصول حقا؟ قال: رامبو، فقلت المفتول العضل، القوي، صاحب الأكشن قال : لا، الذي عبًّ كؤوس المعرفة كلها، ومات زنجيا أبيض، رائع التمدن..ذاك الذي جثمت الشمس طويلا على غروبه الأبدي..

ما لم تعبّ أكثر الكؤوس حرقة، ومالم تجزم بان الكياسة تورثك الجبن، ومالم تتشرد حتي لا تجد رصيفاً يؤويك، وما لم تنفق عمرك على سرير امرأة لن تحبك للابد، ومالم تمت حيث يحيا الاخرون في سخف، ومالم تكن أنت أنت ابدا. لن تجثم الشمس على غروبك الأبدي، ولن تكون ابداً ارثور رامبو.

ها أنت في فردوس روحك الذي لا تبصره، والذين يموتون في الفصول هم الناس، أما أنت أيها الشاعر، وحدك الذي يحيا غير آبه بتتابعها، تبتكر فصولك التي لا تشيخ و لاتُهجر. لان العالم خصم لانهائي، كذلك الوداعة، لقد اسعدت نفسك بالاوهام حين لم تستطع اسعادها بالأمل، نعم مثلما كنت تقول: (شراء مجموعة من الكتب، يالها من اضاعة للمال، إنها حماقة تامة، ان تحمل علي ظهرك طيناً أجدر من جميع الكتب)، لكن تعال يا ارثور لتضع يدك علي قلب الطبيعة البض!

فالحرير من عدن، والنساء من هرر. امض إلى القبر المظلم، ولنعش نحن تحت الشمس الدافئة السخيفة. لقد كنت مثلما قال لك فرلين: (لقد مت تلك الميتة التي اردتها، زنجياً ابيض، رائع التمدن.) بهذه المصاهرة الرائعة بين الزنوجة (البدائية) والبياض (التمدن) يخاطب فرلين شاعره الأول، وحبيب روحه، ويصفه باجمل الخالدين الذين تمتعوا بالموت حد الحياة،

ويقينا لقد كان رامبو من أطهر الشعراء الذين ساروا علي الأرض، وأصدقهم، وأعذبهم، واكثرهم عذاباً وألقا، وأمسهم بالحياة، وإذا اتهم بسلوكه الشخصي، فلم يجرؤ احد على اتهامه بسوء استخدامه لمشاعره، ولم يكن منحرفاً بتفكيره حين اتهم بانحراف جسده، ولم يمجد غير الحياة (العالم طيب أني ابارك الحياة) كان صادقا، حراً طليقاً مشمساً في عصر العبودية الكبير.

أين أنت أيها العزيز ارثور من الشعراء العبيد في زمن تضخمت فيه الحريات، ولم يعد في الأرض قن واحد، فقد ولى زمن الخصيان ومجدت الفحولة في كل شيء، لقد صنعت وحدك مجد الشعر، هل صنع هؤلاء مجداً لأنفسهم،؟ أنت جعلت من الشعر وسادة خضراء لكل متأمل بينما جعلوا من شعرهم شتيمة للشعر.

حتى الانحرافات التي وصمت بها أو التي تنسبها لنفسك لم تكن شائنة بالقدر الذي يتصف به شعراء المؤسسات الآن، وأمام كل القذارات التي تمارس باسم الشعر، كل التبجحات التي هي خلاصة مشاعرهم، واحب قصائدهم لنفوسهم الميتة، تقف أنت شاهداً علي سوءاتهم، يترنح مركبك السكران بأشرعته الطاهرة.

ليتقدس اسمك، ولنحلم معك بفردوسك الذي تنشد، ولنسمع منك وحدك صوت الشعر الحقيقي، كي لا تتوحش ارواحنا، ولا تتصحر قلوبنا، وليحيا كل المارقين المجانين والشياطين (أبناء الشعر الحقيقيين) ممن اخذوا الشعر عن سيد الشعراء وأمام (الابقين) ارثور رامبو هذا الصبي الذي لم تسع النبوات جسده الملائكي، ولم تستطع الحكمة ان تمكث فيه طويلا، فغادرته غير كارهة، لكنها انسلت منه بعد ان احست بغربتها في جسده، هذا الصبي الذي هزّ العالم من اذنيه كما يقول عنه هنري ميلر.

يقول: كان رامبو في خصام أبدي مع نفسه، فانه كان في وئام تام مع

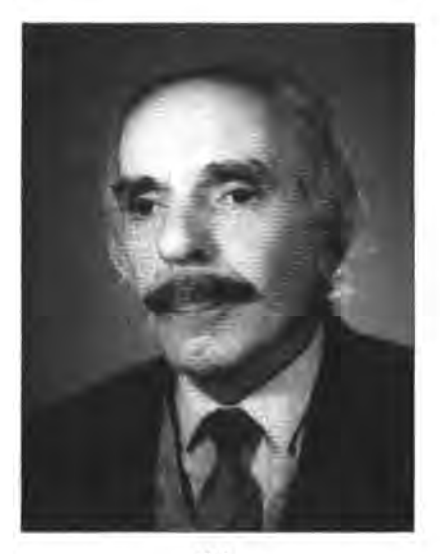
الأشياء، وامينا لروحه وعوالمه، وكان قادرا على رعي بذرة التشرد في خطاه، وعبدا ازليا لقدمه وشوارعه وحدائقه وارصفته، وهو المنتمي الوحيد لهذه الضلالة الفاضلة.

باب الحيرة والوجود

كنت قد عزمت على أن أسأله عن الشاعر الطعين في البرية فقال فزعا : مَن؟ محمود البريكان؟ قلت هو بعينه فقال : هذا باب في الحيرة والوجود، فقد اغلق محمود على روحه البيبان كلها، وفينا من يقول بأنه كتب الكثير من القصائد، هناك من تحدث عن أشعر كثيرة ظل يخبئها في صندوق كبير من الحديد، لم يجعل له بابا، أغلقه، قبل أن تفتح صدره المدُى، في الليلة التي وجدوه فيها ميتا، لقد سرق أحدهم الصندوق، في الليلة تلك كان محمود يصيح ليت للصندوق بابا.. ما كنت لأفكر بالكتابة عن الشاعر محمود البريكان أبدا، لعلمي بحساسيته المفرطة تجاه مثل هذه الاقتحامات أولاً, ولاعتقادي بأن الزمن لم يئن بعد لركوب الأهوال فهذا مركب صعب, ولن يكون الاختيار الأمثل بالنسبة لي, غير أني تصورته أو (رأيته) لا أذكر، مارا قرب نصب الشاعر بدر شاكر السياب، صديقه وشقيق تجربته في الريادة وابن مدينته ورحلته في الشعر والوجود, وسألت نفسي, ترى كيف يفكر البريكان حين يسقط ظل التمثال على الشاعر فيه؟ هل يرعب المعدنُ الأسودُ الشاعرَ؟ أي حوار سيبدأ بينهما؟ وهل فرَّق المعدن الرحلة التي ابتدأت مطلع الأربعينات؟ بدر على حافة الماء, بذراع لا تشير إليه, والبريكان فيما سيؤول الناسخون والتاريخ عنه , أيهما يبدأ الأخر بالسلام؟ السياب بجيبه المثقوب, والبريكان بصمته الذي نثقبه نحن أصدقاؤه بين الحين والأخر؟ السياب بوقوفه الطويل قي قلب المدينة والبريكان بتجواله الوئيد, وهو يصف خطواته على شوارعها خائفاً من المعري (صديقه القديم) الذي أمر الناس بأن يخففوا الوطء. لأن الأرض هذه من أجسادهم, أمام هذا, وغيره الكثير أردت أن أستأذنه غير مرة, لأن الحديث عن البريكان تضيق لسعته الصدر, والمغامرة لم تنته بعد.

أعترف بأني من القليلين الذين يختلفون على منزله في حي الجزائر... فقد مضى على زيارتي الأخيرة له أكثر من ثلاثة أعوام وذلك لأني التقيه أحياناً في الشارع فاحترم عزلته وأهابه. كذلك إني أحب أن أنظر إليه بعيدا. عنه أتأمل قامته الباهرة وهو يقطع العشار جيئة وذهابا، صحبة نفسه وعوالمه أو صحبة أحد ولدية فأقول معه ما قال في قصيدته (الطارق) :

من الطارق المتخفي ترى؟ (شيخ عائد من ظلام المقابر)..... (رسول من الغيب يحمل لي دعوة غامضة) ومهرا لأجل الرحيل؟



بيركان

حملت (كتاب انطولوجيا الشعر العربي) الصادر باللغة الألمانية، له فيه مجموعة قصائد. أرسله بيدي الصديق الشاعر حميد قاسم من أبو ظبي حين التقيته في بغداد , وقصدته في منزله، كانت الشمس تحتجب خلف

سحب شتوية ماطرة, اللوحة القديمة معلقة, أمامنا ساحل قريب، وبحر متلاطم مترام، فنار ودوارة ريح تتغير, غير أن الغبار كان يغطي تاريخ الأشياء (تاريخنا) الغبار زمن يكتبنا على الأشياء لنقرأه هرما وأغلالا وقصائد.

معا على الأريكة قبالة اللوحة، النافذة خلفنا بستارتها القديمة، النور القليل يضفي على المكان زمناً آخر (غبارا) المكان بتواريخه التي أعلمها والتي أتخيلها, البيت بانطوائه على هذه التواريخ، المسرات القليلة التي اجتاحت خيال الشاعر, الآلام التي ينوء بحملها الشاعر العملاق الذي يرزح تحت نير الحرية والعبودية معاً, ومازالت أغلالها ترن في معصميه.

كيف أذن؟ أنّى لي أن أبدا؟ وماذا تراني قائل: الشاعر الذي عندي لم يبلغ الحلم بعد, والقصائد التي أفرح بها في الليل أخجل منها في النهار (حين كتب البريكان قصيدته «قبر في المرج» عام ١٩٤٧ لم يكن أبي قد فكر بأمي بعد) كل ما لدي هو بعض من صلف الشعر والمغامرة وحياء ظاهر أتحدى به جبل الشعر الراسخ في أريكته. الذي يرعبني بسؤاله عن شعري وصحتي وقراءتي وأشيائي (إذا كانت عندي أشياء) ظل يرعبني بسؤاله -أرأيتم كيف يرعب غياب الشاعر حضور الآخرين- قلت له مستعيراً مقطعاً من قصيدته (نافذة الشاعر) يفتحها النور والريح وعطر الأرض يهجم منها صخب العالم/ يغلقها كأنما لآخر الزمان/ ومثلما يغلق تابوت إلى الأبد .

أنطفأ المصباح: فاختفى نصف وجه الشاعر, صرت أرى نصفه الذي يلي النافذة, مثل ممثل شكسبير كان يأتيني صوته, مارا بغابات, لا أعرفها, متلاطماً مرة, وهادئاً أوبيراليا مرة أخرى, شعره الأبيض المرخى على عنقه صار أكثر بياضا.

حين أزاح الستارة, دخلت شمس بيضاء بادرة, وقطرات مطر مرتبكة

كانت تنقر النافذة, خلفها, كأنها تقول لي: الشاعر لا يقبل أن تسترق منه النظرات.

ظل يتحدث عن الرازي بنصفه المضاء, بينما تحجب العتمة وجهي عنه, كنت مبهورا بحديثه الذي لا ينتهي, أراء وأفكار وشخصيات وتواريخ شعراء وروائيون، مسارح وسيمفونيات، أشياء لا يمكن أن تمر إلا على ذاكرة الكبار... (يكتب كتاباً عن الرازي في مطلع حياته الأدبية) ظل يتحدث ويومئ بيدين معروقتين, فأرى الأصابع النحيلة وهي تعبث بالتواريخ والأسماء والذكريات، فأراه يأتي ثانية بالحديث عن الرازي متذكراً سنيه الأخيرة, حين أصابه الوهن ليقول بلسانه: مازلت على حالي هذه, حين ضعف بصري، وفت عضدي, أستعين بمن يكتب عني, كان ينتقل بالحديث من أبن رشد إلى الغزالي, ثم يعود على المعري, ويعجب من صبر المبدعين ويعظم إنجازهم ويكبر فيهم روح الوفاء والمطاولة ويثيره خلودهم في الزمن. كنت أصغي شاردا, أحاول أن أخدعه بإصغائي, أبدو معي, بينما كنت أسرح بأفكاري بعيدا, ترى أيتحدث شاعر مثل البريكان عن الخلود؟ وهنا أستحضر قوله السياب فيه: (محمود البريكان شاعر عظيم, ولكنه, مغمور بسبب نفوره من النشر) ورشيد ياسين: (البريكان: يتقدمنا بمائة عام) وحسين عبد اللطيف: (شاعر طليق: جوال في ليل المعنى) بينما يقول هو: أعتقد أن على الشاعر الحقيقي أن يتحرك وحيدا, ضمن خلفية تاريخية مدركة وعبرها). أو... (المفكرون الحقيقيون رواد طرق... لا ينتظرون أن ترسم لهم خرائط) ويردد كثيراً بأن الحقيقة ليس لها زمن.

ظل البريكان أمينا لعوالمه, ينظر لتحقق تجربته الشعرية بعين العارف (المطمئن) وكانت تصدق آراؤه, وتترسخ يوماً أثر يوم، وهو الذي يقول دائماً، ويؤكد بأن التجارب العظيمة إنجازات فردية, والانتماء للشعر

انتماء لوحدة الوجود. وهو إخلاص لأبدية تسعى لتحقيها ثلة من الكبار الذين يتقدمون موكب النور. وهو ككل المعنيين بخلود الأشياء وانتصار الإنسان لا يألفه محيط معين. دأب الناس على تسمية أبعاده. ومعرفة حدوده. فالكون لديه أكبر مما هو مرسوم ومصور والعلاقات والأواصر لأتفهم كما هي عند الآخرين. فيظن البعض بترفعهم ونفورهم من الظاهر والسائد والمعتقد بصمته.

أنهم يذهبون إلى الغامض المتألق خلف الآكام. الذي لا يمسك ولا يرى. كأنه يستشعر ويدرك. هكذا تبدأ محنتهم مع العالم. أنها المعرفة المضادة. المتعارضة مع المعارف البسيطة. هي محنة العارف (الذي انفرطت مفاصله) كما يقول عبد الرحمن طهمازي.

قلت : البريكان أذن لم يستطع أن يتوحد مع (الحرية) فالكون ضيق. والخرائط التي رسمها تلتفت عليه. والأبدية اختصرت إلى حاضر لا يعرف غده. مثله مثل الشاعر الروسي بوريس باسترناك الذي لم يستطع أن يتوحد مع الثورة ولم يقرن حياته بنتائجها. وكان يشار إليه بأنه عدو أيديولوجي. ومهاجر داخلي. والحقيقة أنه كان استثناء لا يصدق في روسيا.

(نحن أذن لا نستطيع أن نعبر السياج دون أن نطأ نظام الكون) (محنة باسترناك– أدونيس).

قال: أراد البريكان وعبر لغة مجازية. (حياة مجازية) والتي هي بالتأكيد– نتيجة طبيعية لقصر حياة الإنسان لديه – أن يفصح عن نفسه باشرا قات عفوية. للفردوس وهي الخطى الخاسرة دائماً. لكنها الوحيدة. أراد عبر تجربة فريدة صادقة أن يجد نهايات سعيدة للعالم أراد أن يعظم الوجود عبر مهالك لابد منها.

باب الأشياء الغامضة

وفي صندوق حكاياته الكثيرة قال إنه يحتفظ لمحمود البريكان بمدونة عنه، كتبها بعد أن أحكم محمودٌ غلق باب داره الواقعة بضاحية الجزائر، ثم أنه حين احكم غلق النوافذ والستائر، نسي باب الفجيعة مفتوحا، فدخل اللصوص وسرقوا كتاب الأشياء الغامضة، كتاب روح محمود..كان ذلك في شباط عام ٢٠٠٢، حين لم تكن السنة كبيسة بما يكفي لنجاة شاعر من القتل.

في المساءات الموحشة حين يترك الشاعر نافذة غرفته العلوية مفتوحة، يكون حفيف الريح قد خفَّ كلما ابتعد القمر الشتوي الأصفر، وحين تتعالى الآلات البوذية من مقطوعة سور الصين لـ (ياني) الإغريقي، وينفرد عازف الفلوت بعيداً عن حشد الموسيقيين تتساقط أجزاء رقيقة من طبقة الملاط في السقف، تسقط على الرأس الأشيب المأخوذ بمرح العازفين، ولن يجد مسوّغاً كافياً للفزع هذه المرة، فغالباً ما شاهد البقع الخضراء الرطبة أعلى السقف، فهي تسقط حين يشتد الرعد في ليالي الشتاء، وتسقط أيام الحروب، حين تمر الطائرات، وتدوي المدافع، لكنها لا تُفزع الشاعر، فقد ألِفَ الأشياء هذه، ألِفَ حتى اختضاض الأبواب واهتزاز المصاريع.

يلتفّ وحيداً ببرنصه ذي الحزام المفتول، وقد همدت المقطوعة على المنضدة الزان الدكناء، وبعد أن تقاطعت أسلاك جهاز الكرامفون مع شبكة الأسلاك الأخرى حول السرير المنفرد منذ أكثر من عشرة أعوام، والشاعر يحدّق في السقف الرطب المبلول بعين مفتوحة وحيدة هذه المرة، فقد أسلم إحدى عينيه لما ظلّ في وحشة الليل من نجوم، وانزلق تحت الغطاء منتظراً أن توقظه قصيدة، بائعة قيمر، طَرقاتُ صديق، أو أصوات الأطفال في الزقاق المشمس، غير آبه لشيء فقد أعدّ للصباح مرآة الحلاقة وجهاز

التسجيل والخطوات اللازمة لجلب الرغيف من البائع آخر الشارع، وكذلك فنجان الشاي المعدّ سلفاً في غرفة المعيشة.

الشاعر يفكر بطاغور، يمجّده، يتمنى لو أنه التقاه في متنزه عام أو في دار الأوبرا، يفكر براقصات البولشوي النزقات اللواتي ابتعدن عن باسترناك (هذا المنتفض في غابة الثلج) وراح راقصاً أزلياً مع بجعات تشايكوفسكي البيض (ليتني كنت أطلعته على ديريك ولكوت، من المؤكد أن سيسحره هذا الكاريبي الرائع، ومثله أشير للبحر الأزرق والخلجان التي ألهمني خرائطها ذات يوم) نام البدويّ الذي لم يرَ وجهه أحد، النجدي الذي انتزع الصحراء والرمل من جسده، واستقر في المدينة، حتى صار متحفاً للأشياء الغامضة الغريبة.

ذات يوم تركت العائلةُ خيامَها وهوادجَها وبراريها وانسلت في فجر رطب صوب بليدة الزبير، حيث تستقر العوائل الحجازية العريقة، ولما كان أهل البصرة منشغلين بالتنزه بين البساتين والتجوال بالعشاريات في الأنهار التي تخترق المدينة من كل صوب، كان النجديون يشترون الضِيَاع والدور والمحال في المدينة المُبتاعة لهم، حتى ملكوا مشرق ومغرب النخل وصاروا الأشراف والأسياد فيها مثلما كانوا هناك. وهكذا انحدر الشاعر محمود البريكان من أرفع بيوتات نجد وأكثرها عِزّاً وسؤدداً حتى استوطن هو وبعض إخوانه ضاحية الجزائر بالعشار. وصرنا نزوره ونتباهى بمعرفتنا به هو الذي قال لنا أنّ الشعر حياة.

غطّى الشاعر رأسه، وأطبق عينيه، كان يدرك أن النافذة المفتوحة قد لا تدخل منها الشمس دائما، التهمَ السريرُ الجسدَ الفقير وضاعت الصورة الشاحبة في ضباب الصور المتراقصة في الظلام، وعلى الحائط، تولستوي بلحيته الطويلة الشعثاء، لوركا الذي اصطبغت شوارع غر ناطة بدمه في الربع الأول من القرن الماضي ونيرودا بالرصاصات التي غيرت مجرى

الشعر في أمريكا اللاتينية .

في ليلة الجمعة، في الثامن والعشرين من شباط حيث لم تكن السنة كبيسة، وفي فراشه الرطب الأحمر، أُخرِجَ الشاعرُ ذو الطعنات السبع عشر وحيداً من داره، وقد استعجل الناس دفنه، لئن كان القبر المكان الوحيد الذي سبقنا إليه الشاعر محمود البريكان قد انغلق عليه إلى الأبد، فإن الجرح العميق الذي خلّفه في الضمير الإنساني لن ينغلق أبدا، ستظلّ الحراب أبداً تشير إلى كل ما هو وحشي ومطلق.

لقد استُبيح الجسدُ الذي كنّا (نحن أصدقاؤه) نضنّ عليه بالسلام الكثير ونبتكر العذر تلو العذر حين نُسأل عنه في بغداد أو في أي مكان آخر، وها هي صورته في الصفحة الأولى من الجريدة ممزق الصدر، فاغر الفاه، شاخص العين، ترى ماذا كان يقول لو انه أفاق بعد سبعة عشر طعنة ليلة الثامن والعشرين من شباط حيث لم تكن السنة كبيسة بما يكفي لقتل شاعر.

باب محمد علي إسماعيل

قلت هل كان البريكان المقتول من اهل أبي الخصيب قال لا : هو نجديٌّ من أهل الزبير، محمد علي إسماعيل، الشاعر، اللغوي، الفقيه.. هو من أبي الخصيب، تعال أحدثك عنه.

حين فاجأني خبرُ موت محمد علي الاسماعيل (آخر صديق حيّ كان للسياب) في ٢٠٠٢١١٣ كنت في ذروة اشتياقي لرؤيته، إذ لم تزدني لقاءاتي القليلة به إلا شغفاً بروحه الكبيرة واحتراماً لمربٍّ أفنى حياته في الدرس متعلماً وعالما، لم أقع على مثيل له في هذه الدنيا، والمُتعَرَّفُ على بيوتات أبي الخصيب لن يعدم الحديث عنه، حين يلتقي بزملائه أو طلاّبه، في سوق أو باص من باصاتهم الخشب، التي تنهب الطريق كل يوم بين البصرة وابي الخصيب محملة بعشرات القصص والحكايات.

لقد دخلتْ سمعتُه وسماحتُه وبلاغته البيوت والسكك هنا. وافترشت الأنهار والبساتين، إذ ليس فيهم إلاّ من أخذ عنه شيئاً من العلم والزهد والدعابة. فما أنْ تحلّ ضيفاً على أحد (التنبتية) في باب سليمان أو المحيلة أو الصنكر أو اليهودي (الحمزة الفوك) أو غيرها من القرى والقصبات المتناثرة على شطِّهم الكريم، حتى يعرِّجوا بك بالحديث عن أستاذهم ومدرسهم ومعلم آبائهم محمد علي إسماعيل. فهم يذكرونه حين يذكرون العزيز من أوليائهم وأنهارهم ونخيلهم.

لم يكن مدرساً للعربية، وشاعراً صديقاً للسياب، ولم يكن مُجيداً للإنكليزية والفرنسية فحسب، كما لم يكن مؤرخاً موثّقاً للوقائع القديمة والحديثة أو مصوراً لها فقط، ولم يكن كذلك فقيهاً وعالماً حافظاً للمصحف والحديث، كما انه لم يكن مرجعاً وحجّة في اللغة والأدب والأنساب ولا قاموساً للغريب والوحشي في اللهجات، ولا زاهداً في الدنيا، متوجهاً



محمد علي إسماعيل

للآخرة بكل جوارحه، ولا عارفاً بحقوق الناس، قريبهم وبعيدهم، ولا مطلعاً جهبذاً لعلم الرجال والمواريث ولا غيرها مما حفظ الناس وتدارسوا... كان محمد علي إسماعيل ذلك كله، ويزيد... وإني لأذكر له، مرة، فقد جئته زائراً داره التي في محلة بريهة بالعشار، وقد خرج لي بعد أن طرقتُ الباب، مطيّنَ اليدين بطينة صنعها لسطح داره، حيث تعبر في الأفق سحب باردة نوعاً ما، تنذر الناس بالشتاء، ولمّا سلّمت عليه، لم يشأ أنْ يمدّ يده المطينة لمصافحتي، إعتذر بجملة ما أحوجني أن أسمعها منه الآن، وقد غطاه التراب، شوقاً لذكراه العطرة، فقد قال : إني اليوم أَشْغَلُ من ذات النحيّين، ولمّا لم أكن قد سمعت بهذا المثل من قبل، قال : أتعرف النحي...؟ قلت : لا، فقال : هو وعاء السّمن، وراح يشرح لي قصة المثل، وعرّج كعادته على أكثر من قصة وواقعة لها علاقة بما ذهب إليه، فقلت، له معتذراً عن جهلي بأني شغلتك عن ملاط سطح دارك والشتاء يوشك.

وأنك لتسأل مسألة أردتها عنده، فتجدُ العجب في أجابته، فهو لا يكتفي

بمسألتك حسب، وإنما يعرّج على ما لم يدر في خلدك، وما ليس في حسبانك، فإنْ سألته مثلاً عن هذا النهر، فسيجيبكَ أولاً عن الأنهار المحيطة به والأشجار التي زرعت عليها، وأسماء زارعيها من الملاّكين والفلاحين والعوائل التي توالت السكن عليها والسنون التي مرّت والأسماء التي تبدلت، والحكام الذين تعاقبوا على إدارة القضاء، والموظفين من غير سكنة المنطقة، ولن يجيبك عن ما سألته بل عليك أن تستلخص من ذلك كلّه ما أردت.

وكان قاسم، ابنه الشاعر والصحفي، قد اطلعني على نسخته المهداة له من مؤلف ثورة الزنج المرحوم الدكتور فيصل السامر، وزير الثقافة في جمهورية عبدالكريم قاسم، وقرأت هوامشه على حاشية الكتاب مصحِحاً ومصوّباً حوادث وسنوات وأماكن وخرائط في أغلب صفحات الكتاب، وقارئ هذهِ النسخة قارئ في كتابين من حيث لا يعلم.

وذات يوم استعنت به في إرث تشابكت خيوطه، وكنت أظنُّ أنني لن أجد له عند أحد مخرجا، فقد مات مَنْ مات من الورثة منذ عشرات السنين، وتزوج الوارثون وخلّفوا ورثةً آخرين ثم مات بعضهم، وبذلك رأيتني في حال أحسد عليها مَنْ لا يملكُ شيئاً في هذه الفانية، فتعجبت من طريقته في استخراج الأسهم والحصص، مستعيناً بالآي تارة، وبالحديث تارة أخرى، فاستخلص لي ما كنت أظنّهُ من مستحيلات دائرة الطابو.

وحين كنت أحدّثه فيما عندي، وما تمكنت من الإحاطة به عبر جهدي المتواضع، وجدتُ نفسي تائهاً في بحر معرفته، وقد قلّبتُ الحديث ظنّاً مني بعدم إطلاعه، لكنني كنت دائماً أقع على ما لم أسمع به من أحد قبله، فصار يقلّب معرفتي كيف يشاء، فازداد حباً واحتراماً ويزداد زهداً وتواضعا.

وانك حين تراه أول مرة، فسترى دشداشة قصيرة بيضاء ويشماغاً صغيراً في رجل زاهد متواضع، لكنك حين تحدّثه وتسمع منه، ستعجب،

كيف ارتضى هذا الجسد العالم، المنطوي على الكثير والغزير من الحكمة والأدب والمعرفة أن يكون بين قماشتين بسيطتين، كيف زهد بهذه الدنيا مَنْ لو أراد لحدّثك عن خالقها لما انتهى منك بعام، وعن مخلوقاتها لما وسعه الورق، وَ لَمُتً جاثياً عند قدميه احتراماً وتقديساً وحسداً.

باب الوطن المُستل

حين طرقت الباب عليه، لم يكن راوي الحكايات في حكاية محمد علي إسماعيل مضطرا ليحدثني عن سعدي يوسف، الشاعر الكبير، الذي قال لي ذات يوم عبر بريدي الالكتروني: أتعلم ياصديقي بأني أفكر جادا بالعودة إلى البصرة، يعني أبي الخصيب فقلت له : اما انا فأفضل ان تأتيها زائرا لا مقيما، ثم انحرف حديثنا عن مدرسة المحمودية التي امضى فيها مرحلته الابتدائية، لكني سألته (الراوي) مع ما سألته، عن معنى الوطن، حين يكون مستلا من النهر..

الأنهار العميقة الأولى، التي حفرها العبيدُ الأوّلون، ذوو القامات الممشوقة، الطين اللاّزب، الذي شيّد منه أهلونا بيوتهم، وجعلوا الشمس تطمئن على شبابيكهم وأسرّة أطفالهم وأبقارهم. القصب الأصفر الحزين، خلف منازلهم في أبي الخصيب وباب ميدان وبلد سلامة وكوت الزين، هذا الخيزران المفرط في الطول والغربة، الذي هتكت الريحُ أسراره تلكم الأيام. الناي المُستَلُّ خِلسَة من أنينه وصبره وشكواه. في الشطآن النائية، حيث الخنازير مفجوعةٌ بأبنائها، في الوحول حيث لا يعود قمرٌ لسمائه إلا عند انتصاف المجاذيف وتأخّر الليل. وقد رحل آخر شرطيّ في السيبة. حيث كتب سعدي يوسف قصيدته الأولى هناك ذات يوم.

في النصف الثاني من المائة (العمر المفترض للشاعر) حيث ينشطر جبلُ السنين إلى سفحين، سفحٌ صاعد للفرح وللتأمّل، وسفحٌ نازل للألم. يكون الشاعر في نهاية الخمسين الأولى قد بلغَ قمّةَ جَبَلِهِ وما أن يحُلُّ عليه مساءُ اليوم الأخير حتى يبدأ بالإفاضة من سفح الزهر والأمل والنور، فقد آن أوانُ المغادرة، ولم يَعُد في الوقت مُتّسَعٌ لانتزاع خوخة أو لإصلاح ربطة عنق مائلة، غير أن الشاعر المتعجّل، وقد أنهكته الأيام والليالي صاعدا،

وأَتَتْ على خطاه الفصول، تراه يستطيع الهبوط، مطمئنا، غير مرتجف، لا تتعثر عصاه، ولا تختضّ يدُه، وإذا شاءت الأقدار له أن يكمل خمسينه الأولى صاعدا، أتراه يبلغ بالثانية اسفل الجبل، أم أنّ القبّرات ستفزعه عند تخطّيه أعشاب السنوات البطيئة، حيث الألم زادٌ لا تُحسِنُ الموسيقى تهدئته، ستكثرُ قُبَّرات الشاعرِ الآن، وعند الوِهَاد الأخيرة، على السفح، سيُفصِحُ عمّا لم يقدر على الإفصاح به. وسيُخفي عنّا الكثير من ذلك لأن القُبَّرات ستكون أسفل الجبل، حيث يحدّث (قنافذه) عن النساء اللائي أوهمهن على السفح الأول، السفح الذي كان أخضر، تقصده نساء أبي الخصيب الحافيات.

حين تَعَلَّمْنَا السماءَ الأولى، على الشط النازل إلى الخليج، كان التراب أصفر في أفئدتنا، وللمساء نخلٌ نرسمُه في دفاترنا قبل أن ننام. ثم نستيقظ قبل شمس أمهاتنا، قبل الديكة، لنراه أخضر. وطواشات يلتقطن التمر بين سعفه ويعثرن بالعراجين.

على أسوار أبي الخصيب وُلِدنا، وعلى نخلها رأينا القمر الأول والشمس الأخيرة. وحين كنتَ تتعلمُ الثلجَ والجبالَ الزرق، نسينا الخرائط، خرائط الأوطان التي فيها نحن، لأن الخليفة سملَ عيوننا، فكنا نراك تتبضعُ غربة ونعاساً وخمرا، نعم كنت تذْكرنا في قصائدك، لا لترانا، لكن لنراك. كنا ننتظر أن تمنّ علينا بوطن كالذي لديك الآن. وطن لا يخرّ من حقائبك الكثيرة، ولا تمحوه في آخر القصيدة.

نحن العميان، عميان النخل والأنهار والمحطات البعيدة، الذين سملَ الخليفة عيوننا، نبتكر الآن من هزائمنا الكثيرة آخر القرن، التي لم يُكمِلُ الرواةُ وصفها بعد، وطنا، أيّاً ما كان شكل الضواري التي فيه، لكي لا نظل غرباء، متلفتين، يسرق اللصوص وثائق سفرنا في المرافئ ومخافر شرطة الحدود، فمن حرب الخليج إلى حروب الخلجان أردنا أن نستردّ تراباً (وطناً) كان لأهلينا الذين عصفت الريح بأضرحتهم في الشلامجة ونهر جاسم

وقصر شيرين وحاج عمران، ترابا نستلّه من أجسادهم أخضر أو أصفر كساعات الغروب على نخلنا. سَنُسَمِّيه وَطناً. رغم دبابات (صديقك) توني بلير، عراقا، جنوبا، بصرة، كوت الزين، وطناً يعرفنا ونعرفه، لا نريد وطناً نُطلُّ من سياجه عليه، وطناً كنا سياجهُ وآجرّهُ وملاطه ذات يوم، ولما لم نقو على ترك ترابه صار ترابا، ماذا نفعل يا سيدي ياابن يوسف، أيها الأخضر المر، أردناك أن تبنيه معنا قصيدة قصيدة، فلا تُفزِعُنا ونحن فيه، ونحن نخطُّهُ في دفاتر أطفالنا نخلاً وأنهاراً وشمسا، إذ لم نتعلّم بَعْدُ الهجرةَ والابتعادَ والنأيَ عنه.

باب حين متنا

وكنت قد شُغلت بما لدي من أوراق، أكتبها فتصبح أبوابا، بيبانا، حتى وجدتني أخط الورقة الساعة، وأهجرها اليوم واليومين، فاعتقد بما فيها، لكني سرعان ما أجد اني كتبت في هذا من قبل، كانت اوراقي أكثر مما قصدت، وحين عرضتها على شيوخي، كبار زارعي الكلمات على الانهار أفادوني بأني لم أكتب بعد، وأن ما خططته كله لا يرقى صعود نخلة لديهم.كانوا على حق! ماذا افعل انا منزل الكلمات على الورق؟

هاأنذا قد كبرت كثيرا، واستهلكت المختلف من الكتب والثياب والأحذية وغصّت عيناي بالشوارع والمباني والشرفات، عرفت الأطوال والمكاييل عشرات الأشياء مسّتها يدي، عبثت بها، ودحرجتها أو ألقت بها، لم تبق خطوة في قدمي لأرصفة قادمة، كل الطرقات طوع قدمين صغيرتين، عرفت المطر مُذ كان سحابا، وقبل أن تعرف العصافير أجنحتها سمّيت لها الأفق، وألقيت بها من النافذة، أنا أخرجتها للصباحات، أنا علّمتها الريح والندى والأشجار، أنا قلت لها أنّ السماء واطئة فاخرجي.

كبر خصري أيضا، ولم تعد الغصون قادرة أن تطوّقني كما كانت بالامس وصَغُرَت المنازلُ تحت عنقي، لا أعرف متى اشرأب، وصارت الاسيجة اصغر واصغر، حتى سئمت أن أطلّ منها على الأرائك والعشب ولعب الأطفال (الناس تترك الأسرة والأرائك فارغة في الحدائق آخر الليل لتجلس عليها القطط والأمنيات والأقمار الحزينة.

في الحرب رأيت النساء يرممن الصباحات بالحلي والثياب الخفيفة، وتحت صنابير الماء يغسلن الوحدة والضجر والشجن القديم.

ظل السوق خلف ذاكرتي خرافاً وأمتعة لم يأت عليها أصحابها، جاء

الليل، ونامت الأعمدة، وصارت مصابيحها في التراب، أنا الذي أدمى ظهري الجلوسُ تحتها، وقد قرأت جميع الكتب، وكتبتُ جميع الرسائل، أتذكر الآن ما لم تدع الحروبُ منه شيئا، مسّني الفجر، وأطلّت شمس الرعاة، فأصبحت شائعاً مثل هرٍّ في كتاب، ويوماً بعد آخر، رحت استبدلُ الأشياء بالأشياء... فما كنتُ أحلمُ به صار تحت يدي، أزهدُ به، احتقره، الأشجار التي تسلقتها ماتت، كلها ماتت، والخراف التي خرجت معها في الصباحات الأولى ذهبت إلى المسالخ ولم تعد، الحوذيّ الذي جاءني أول المطر بالزهور المتأخرة مات، وظلت عربته في الريح، تعصرني الليالي، ويوجعني قلبي الآن، أنا آخر الرايات الممزقة، قلب الأحد الدامي، تاريخ شجن الريح... ماراثون الطفولة.



شناشيل

جدولي الصغير الذي كانت تستحمّ فيه الفراشات، ويشطره الأوز جدولين أخضرين... غزته المراكب الكبيرة، عَبَثَ البحّارةُ بشاطئيه، وعلى ضفتيه تركوا قمصانهم وحرابهم وخرائطهم، وهناك... صعدوا مدينة روحي وانزلوا من أقواسها سارية أحلامي، وفرّقوا بيرقها المبلل بالشمس والنجوم.

المؤرخ يقول : التاريخ يكتبه الغزاة، وفلاح في أبي الخصيب يقول : اختلاف الأشرعة يخيف الريح.

انتظم الورّاقون على الرصيف، ونادى كلٌّ على بضاعته، وبمختلف الألسن صِيحَ على الجميع، حتى ابيضّت الأصوات وتشققت الحناجر، وابتلع المساءُ الرصاصَ والألواحَ والأختامَ والتصاوير... لكن البضاعة لم تنفد، انتظروا صباحاً آخر ومساءاً آخرَ وآخر، جاءت شموس كثيرة ووطِئَت المنابر للبداة والزناة والأفّاقين، واندسّ في الحاضرين صمت مخيف ونام الجميع.

مرة أخرى أخلع سنّ الذئب وأرميه بعين الشمس، وقد أشرق على جسدي نهار الله الأبهى، وسكنتني روح الخلق العالية، وقفت أتأمل طولي، ، أتأمّل الأسيجة والأشجار، أتأمّل الأشياء والأشياء وتلفتت عيني... لكأني لم أرَ بها من قبل. هاهنّ صويحباتي بالأمس، صبايا سوق المغايز والكورنيش والعشار، اللائي عبثن بقصائدي الأولى، وخربشن كثيراً على سبورة فرحي، وكنت قد سهرتُ ونمتُ واستيقظت على وقع أقدامهن وهنّ يملأن ساحات الدنيا فرحاً وبهجة وعطرا. وفي ليلة واحدة غدرَ بهنّ الزمان، غدر بقلوبهن وأعناقهن ورموشهن وأكفّهن، وفجأة صرن ثكالى ويتامى وأيامى، صرن كل شيء إلا الفرح، ورحن ينتظرن المساءات بثياب سود، نزعن المخمل والورديّ ووقفن على الشرفات لا ليتأمّلن الشمس وهي تشرق من جديد، ولكن ليولولن على ما فقدنه في الحروب، وعلى العمر الذي

فركته السرفات، في المطاحن على الحدود والأقبية السرية، تحت الفنادق الكبيرة، وكنّ قبل ذلك قد خرجن للسوق ممشوقات فارهات، علّقن الأحلام بيَد، وتركن يداً تحت وسادة الحبيب الذي لن يأتي اليوم، ولا غدا ولا بعد غد، ولن يأتي بعد أبدا، ولا أحد يعلم أين صار جسده الآن، فالشلامجة ونهر جاسم والفاو والشيب والفكّه وسربيل زهاب وسانويا وقصر شيرين وحاج عمران وبنجوين وغيرها من أماكن الشرق العراقي توزعت جسده، فصار فيها عشبة غريبة تطلع وتغيب عليها شمس الله كل يوم.

تأتي المصابيح، وتندثر الشرفات تحت صنبور الماء المكسور، النور يسقط، والفجر في شرشف النوم فضّياً وباهرا، حليب أمي وشاي الصباح الأول رأيته في حانوت المدرسة معلباً وساخرا، أجلسني في الساحة مدير المدرسة الزيتوني ونادى على أيامي، هل تشرب الأيامُ حليبَ الجُند...؟

وفي غفلة منه وقفت في باب المدرسة، وصرختُ أنَ الكرة معي، فلم يُهرع إليَّ أحد، هربتُ بها، وسقطت، فرّت الكرة من يدي، وأدمتني الأرضُ لكن أحداً لم يُسرِع نحوي، وجدتني وحيداً إلاّ من ظلي على الإسفلت الذائب، لملمت سنيني من الشبابيك والمقاعد والأعمدة والساحات وسرتُ كان الآجرُ أصفرَ وأخضر في روحي.

لا أعرف كيف هجرتني الطفولة، واستبدلت يدي وقدمي وعيني تريني وطناً لا أعرفه، هي سمته لي، قالت: دافع عنه، مُتْ على حدوده، مُتْ من أجله، فدافعتُ ومِتُّ على حدوده، مِتُّ من أجله كمن لم يملُك وطناً في حياته.

باب الذهب... باب سوق الخضار

ويقول: جاءت سنة أهلكت الفاقة فيها أهل أبي الخصيب، فقد أمر السلطان حاشيته بأن لا تزرع فيها المروءة، ولا يخضوضرٌ حلم في نفس من نفوس ساكنيها، ولا تصعد شجرة توت، أو تين شرفة منزلٍ من منازلها، ولما ضاقت الدنيا بهم، خلعت النسوة كل براق ولامع في ايدهن وأقدامهن وآذانهن وذهبن به إلى الصائغ، وهناك في سوق الذهب، القريب من سوق الخضار، اشترين الطحين والسمن والسكر...

من المفارقات الكبرى، وقوع سوق الخضار في المدينة، عند النهاية السعيدة لمحلات الصاغة، في سوق الذهب، حيث عيادات الأطباء والصيدليات، هذا التجاور الفنتازي..لكأن المدينة تداوي مرضاها مرة عند الطبيب وأخرى عند الصائغ. فرؤية الذهب، والتمتع بمنظرة، والتمني في اقتنائه، سرور للنفس وترويح عن ضيق الحياة.

وسوق الخضار (الخضّارة) كما تسّمى غالبا، هي سوق الطعام المركزي هنا، إذ تضخ منها أطنان الحبوب والفاكهة والخضار واللحوم لتبتلعه المدينة بسكانها المليونين. وفي هذا الزمن الصعب، زمن الرغيف الطائر، الرغيف الذي مازال يفتك بالعائلة العراقية منذ عشرة أعوام، وما أنفكّ منجلُه يحصد الأخضر واليانع من قلوب العراقيين. ويخترق مثل رمح من نار مواسم أفراحهم، ظلّ سوق الذهب هذا يحتفظ بعافية عجيبة لكان أيدٍ فرعونية احتفظت بزمنه، عفّرته بترابها, وأبقت خلوده رهاناً صعبا، وشاهداً كبيراً لصالح الخير والنماء، لشعب لا يريد عن الحياة بديلاً.

فمازال اللون الأصفر فيه هو سيد الألوان رغم انقطاع التيار الكهربائي أغلب الأحيان, وزجاجُ معارضه أجملَ زجاج الأرض, فهو الزجاج الوحيد في البصرة، الذي يحتفظ بسروره طيلة النهار، وتحفل لياليه بقصص ليس

أجمل منها قصص ألف ليلة وليلة، وتصطك جوانحه على الذهب، الذهب الذي يُغري المارة ببريقه العذب، فهو زجاج قلبه ذهب، يحسده المُحب الولهان، وتتمناه الأصابع والأكف والأعناق.

النساء طبعاً هنّ أكثر زبائن سوق الذهب، وهن المحترقات بحبّه، الذائبات بلونه، وهنّ اللواتي يحرقنه بحسراتهن التي تكاد تطفئ مصابيحه الأزلية. وحين يتجولن به، تراهن غاديات ذاهبات، مفتونات بتارجحه في المعارض، فيقفن أسارى بريقه.ساعة للتمني وأخرى للمفاضلة فالذهب عالم الأنثى ورصيف آمالها . فمن استطاعت أقتنه ومن لم تستطع تمنته.

ويبقى للواتي سيصحبن عرائس قريبا الحظ الأوفر في ارتياده ولأكفهنّ وأعناقهنّ حق التدّله والغنج والتباهي، فهن أكثر زهوره بهجة وسروراً، وهن أكثر الناس حديثاً عن ارتفاع وهبوط الأسعار فيه، وغالباً ما يخرجن منه بخاتم صغير لا فصّ فيه، أو حلقةٍ (دبلة) لا يتعدى وزنها أجزاء الغرام الواحد.

السوق يزدهر أيام الأعياد والمناسبات، وفي الربيع وعقب الشهرين الأسودين (صفر، محرم) لإقبال الناس على الزواج، وفي فترات ما بعد الامتحانات النهائية، ومطلع العام الدراسي ومواعيد استلام الرواتب بالنسبة للموظفين.

في الأعوام ١٩٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٩٩٥ من القرن الماضي، شهد السوق أجمل أيام ازدهاره، وسجّل أرقاما قياسية في البيع والشراء، ففي السنوات هذه . اضرّ الجوعُ بالناس وبلغ الحصار ما لم يبلغه في غيرها من الأيام، فقد باعت العوائل اغلب ما كانت تتنفل به في حياتها، وامتدت أكفُ الحاجة إلى الغالي والنفيس لديها لتحيله خبزاً وسمناً وشاياً وسكّراً وثياباً تستر به أجسادها أو ما ظلّ من هذه الأجساد، فما سُمي بأيام السعد

والرخاء لم تعد التسمية تعني معه شيئا فقد توحَش الرغيف فيها مثلما توحش الإنسان فأن لم يقتله قتله.

لكن المرأة التي كانت تتفنن في اقتناء مصوغاتها وُحليَها، وتعقُد الأمل فوق الأمل، وتنتظر وتتوعد الأيام, لم تُكمل حلمها, ولن تكمله فها هي تودّع زمن الزينة ليحل الزمن الحزينة، فما نفع قلادة على عنق ذابل, ولأجل من تأرجح أقراطها؟ ولأي مساء مظلم تدخَر أساورها؟ والدهر يومان... والذهب الأصفر ينفع في اليوم الأغبر... واليد التي جاءت به هي التي تحتاجه الآن, وهي القادرة بالتأكيد على استرجاعه من فم الزمن المعتم الكاسر.

أخذت ذهبها, مصوغاتها, أقراطها, وأساورها وقلائدها وتمائم أبنائها كل الذي جمعته عبر الأيام والليالي والسنين. وما أهدي لها في أغلى المناسبات أو توارثته من أمَها, كل ما كان لامعاً على الصدر, وبرّاقا في المعصم, أخذته إلى الصائغ, الصائغ الذي دكّانه عند النّهاية السعيدة لسوق الخضار، الذي لا يبيع الطحين ولا السمن , لكنه يشتري الذهب, والبائع المحتاج ليس كالمشتري البطران, الله وحده يعلم كيف كانت لحظة استلال المصوغات من حافظاتها لتضعها على الطاولة, الطاولة التي وقفت عندها أكثر من امرأة قبلها لتضع عليها تعب العمر وأجمل لحظاته، لتضع الذكريات الحلوة, أيّام الصبِا, أيّام الشباب.. المناسبات العزيزة الناس الذين أحبّتهم، أهلها... كلّها.. كلّهم , هذه الأشياء، كيف يستطيع إنسان أن يبيع لحظاته, حياته, تاريخه, هل تباع التواريخ بهذه البساطة ولنا فيها مالاً يمكن إن يعوّض فالمرء, هو حاجاته، لحظاته، ما الإنسان لولا أشياؤه؟ كيف به إذا كانت أشياؤه كلها ذهباً, (ذهبت).

المرأة تحرص على أن تضع مصوغاتها في أجمل الحافظات, وتختار ما تختار لذلك، لكن الصائغ (المشتري) لا يأبه, فطاولتُه التي تحفَلُ كلّ يوم

بمختلف أنواع الحلُي لا تتزّين به سوى لحظات, فهو يجمع ما اشترى في اليوم ليعجنه في إناء واحد.فاسوارةُ ابنة الجنوب (الحضْرية) مع خاتم البدوي, وتميمةُ الطفل من المديْنة مع قلادة امرأة من المعدان, وقرآن المسلمة مع صليب الفتاة المسيحية وأقراط الطفلة من الحيّانية مع كلّاب امرأة عجوز من أهل الدير... وهكذا يعجن الصائغ الآمالَ والأفراحَ, الأيامَ والهدايا والمناسباتِ السعيدة في فرّن واحد, لمئات الأصابع والمعاصم والأعناق ثم يجعل منها صخرةً صمّاء (صفراء) لا حياة فيها, بلا نقوش ولا رسوم ولا أسماء, بلا تواريخ بلا حياة، هكذا يُحيلُ الجوعُ أجمل ابتسامات الدنيا إلى حجر لا معنى له: فالذهب رغم كلِ صفاته لم يحظ يوماً بتسمية كريمة, لكنهم قالوا عن أحجار أخرى بأنه حجر كريم.

يوضع الذهب عادة في مكان آمن من البيت، فالأثرياء يحكّمون القاصات الكبيرة، له والبسطاء يضعونه في الصناديق التي يثقون بأقفالها، وهكذا دأب الناس على الاحتياط في حِفظْه، لكنه وفي لحظة غادرة من الزمن فَقَد هيبته ليوضع في أوحش المحفظات، وها هو في محفظةٍ من النايلون الأسود, اخُتيرت لتمنع فضول اللصوص ولتبُعد الشُّبهة عن حاملها والتعرض له, ثم تدسُّ في أوحش الجيوب, ولتحمل وتشيّع الى مثواها الأخير, ثم تسجّى مثل جثث نخرة على دكّة الصائغ, لا لمعان لها, فقد اختفى بريقُها وراح سؤدُدها، بل هو يحطُ من شأنها وصياغتها وقدم أُنموذجها فتتمسكن المرأة أمامه مرّةً, وتكابرُ مرة أخرى، تحاول معه في رفع السعر قليلاً فتخلعُ على ذهبها أجملَ الألقاب، ،

عيني هذا ذهب تيزاب ٢٤ حباية.. والله الكريم, (مال كَبل), اشترته أمّي في عيد ميلادي, أهداني إيّاه أبي في أول صباح من زواجي, جئتُ به من إيطاليا عندما كنت هناك, أتى به زوجي, من تركيا... ذهب ليرة أي والله..

لكنها بائعته لا محالة, فتأخذه الى صائغ أخر وأخر, تُعيد وتزيد لكنهم

متشابهون, والسعر واحد في البصرة, في العشار أو في الزبير. وان اختلفت الابتسامات واختلفت كلمات الترحيب فقد تركت الأولاد بلا طحين, والسمنُ لا يكفي وجبةً واحدةً, ونفد السكّر والعيدُ على الأبواب, وغداً نهاية العطلة , سيبدأ الموسم الدراسي, إذن ثياب وحقائب وأحذية وتنورات.

سيزن الصائغُ الأفراحَ.. (الذهبَ) ويعطي المرأة بضعة دنانير زرقاء وخضراء وبنفسجية شاحبة, بعضها ممزّق, وملصق بشرائط شفافة... ها هو كيسُ الحلي, كيسُ العمر العذب, كيسُ الحبِّ والقبل والشوق والأمنيات, مبعثرًا على طاولة الصائغ، وقد استحال رزمة أو رزميتين من أوراقٍ محليّة لا تساوي ثمن طباعتها, وستتركُ حافظتها عنده, لم تعد مهّمة، وسترزم الأوراق في كيس من النايلون الأسود أيضاً, ولتتجه صوب السوق (سوق الخضار) ولتبدأ رحلة جديدة من الألم والعذاب والحزن, ستتحول الأوراقُ في لحظات الى عربة يدفعها صبيٌّ أسمر حاف، فيها كيس طحين قال البقّال أنّه طحين ممتاز واقسم على ذلك والعهدة على يمين البقّال.. وعلبة سمن مستوردة مزينة بصورة لخراف سمينة تقول بأنه سمنٌ من أجود الأنواع، والعُهدة على الشركة والخراف معاً, لا حاجة لنقول بأن السكّر سكرٌ ممتاز حلو والعلم عند الله فاللون اسود والرائحة رائحة شاي ولا علم لنا ما إذا كان اللون والرائحة كافيين ليكونا شايا ممتازا...

وهكذا مع بعض حاجيات أخرَ للأطفال... حلوى رخيصة، ملابس مستعملة، وربما عليه ماكياج عادية, وأشياء لا يحسن بنا ذكرها هنا تحوّلت المحفظة (العلّاكَة) الى علّاكة فعلاً ليس فيها سوى ذكرى نقود، ذكرى صفراء بائدة.

أما ما ظلَ من أوراق فقد كانت تُكمل دورتها بين البقّال والجزار وبائع الخضار. أو بين هذا الطبيب المشهور والصيدلي الحبّوب وبائع الأحذية الطيب.

باب الخورة

كنت قد سمعت منه الكثير من الحكايات، فقد ظل يفتح علي بيبان روحه كلما هبت ريح باردة، كلما صعدت شمس محرقة، لكن حكايته هذه آلمتني كثيرا، وفيما كنت أغالب دموعي عميقة، كنت أرى دموعه تنغرز في وجنتيه مثل أشواك العاقول اليابسة، فوجدتني مضطرا كي أسأله عن الخورة، عن قمارة أبو إسماعيل خال أمي، عن جنيبة طالب طلال التي تعطلت أعالي الخليج، في طريقها للكويت والبحرين، فوجدته يومئ ناحية الشط الكبير، قال الخورة أم اليعقوبية؟ قلت هما معا.

لم يبق في الذاكرة من الخورة غير جسر الخورة الخشبي، الذي ينتهي من جهة المناوي (مناوي باشا) عند قمارة (أبو إسماعيل) ليبدأ السوق القديم، حيث يبيع المعدان السمك على حافة النهر، لصق المسناة التي نخرت الأمواج وحيازيم القوارب خاصرتها الغربية، فيما ظلت غرفة الميكانيكي، الحارس – في الوقت ذاته– شاخصة حتى هدمت البلدية السوق، وأفلتت من يده زمام فتح الجسر وغلقه أمام عشرات السفن والمهيلات التي كانت تدخل وتخرج محملة بالتمر والخضار والفاكهة.

في السنة الأولى لدخوله البصرة بنى الجيش البريطاني جسر الخورة، ليسهل عليه إمداد قطعاته الصاعدة نحو بغداد، وليسهل عليه إدامة طريق الهند عبر مياه شط العرب، لم يبق اليوم من الجسر إلا دعامة واحدة تقف عليها الطيور الاسكندينافية المهاجرة، لتشعرنا بالوحشة وضياع الزمن، ساعة الغروب، فيما يقضي الحمالون استراحتهم عندها في النهار، يأكلون السمك والبصل بالخبز الأسمر(خبز التموين) حيث لا تبعد الشريعة عنهم كثيرا، فهم ينزلون الماء ليغسلوا أيديهم بالماء حسب، فهم في غنى عن الصابون منذ زمان.

وحين يأخذنا حنين ما، سنرى عبر صورة قاتمة، لا تكاد تفصح كثيرا عددا لا يحصى من الدوب والجنائب، تصطف بانتظار دورها لتحميل الاسمنت إلى البحرين أو الكويت أو محميات خليج عمان، سنرى الحمالين بأذرع سمر غامقة، مسودة، واكف صلبة، عروقها ناتئة، وهم يحملون الأكياس على ظهورهم، ثم يغوصون في العنابر، ليخرجوا من ممر ضيق آخر أكثر تعبا، وجوههم كالحة مغبرة، أقدام نابتة في اللوح الذي يصل اليابسة بالعنابر، ترتفع مع المد وتهبط عند الجزر.



لنج في شط العرب

جنائب، وبانطونات، أو قطارات عائمة كما يسميها أحدهم، كانت تمخر البحر بأشرعة غير آمنة، وبمكائن لا تعمل بالزيت غالبا، كثيرة العطلات، وحين غامر (طالب طلال) يوما وشحن جنيبة بالخضار إلى البحرين، على غير عادة الملاحين، لم تحسن الريح صنعا معه، بعد أن تعطلت ماكنة البخار عرض البحر، فظلت أناكر الجنيبة راكسة في الطين المالح حتى انبت البصل والجزر والشلغم جذورا جديدة، صارت تستفز البحارة خلل أكياس الجنفاص، وخيوط السوتلي، وكذلك اسود ت اللوبياء، وتاخ

الباذنجان... كانت العنابر الرطبة قد هيأت أرضا صالحة لفساد الأشياء تلك، فخسرت الرحلة، ولم يغامر احد بعد ذلك بعبور البحر بمثل الجنيبة هذه. فاقتصرت التجارة على الاسمنت والتمر.

وتلوح أكواخ المعدان لمن ينحدر جنوبا، حتى كوت باش كاتب، صرائف من القصب، متراصة ومتداخلة، على جهتي الشارع الذي يقودك لأبي الخصيب، لا يفرقون بينها وزرائب الجواميس، أطفال يلعبون مع الكلاب والقطط والإوز والدجاج، مشهد يومي لا تبارحه عين مستخدم الطريق، الذي لا يعدم أن يشم في المكان ذاته رائحة بغضاء قديمة، بنادق طويلة معلقة على الأخصاص، خصومات متوارثة، تفوح مع رائحة القيمر واللبن الطازج، ومع نار الحقد والكراهية التي تنشب بينهم، فيموت من يموت كانت الحرائق لا تفارق بيوتهم سنة، حتى تتركها بلقعا، فما أن تنشب في خص نابا لها حتى تغادره إلى آخر فآخر، البيوت المتراصة كانت تفرح النار كثيرا، فجائع كانت تدمي القلب.

ولم يكد المعدان يستبدلون أخصاصهم منتصف الستينات حتى جاء أمر البلدية بوجوب إخلاء الأرض وترحيلهم، فسارت قافلة سوداء، أطفال ونساء ورجال وجواميس، على امتداد البصر، سدوا عين الشارع الطويل، تتقدمهم يشامغ فراتية غامقة، حزينة، هوادج ألم عبرت الليل إلى جهة في الفجر، لم يعرف احد أين حط بهم النهار، طردتهم البلدية لتبني في المكان ذاته مستشفى ومرآبا للعجلات وكلية جامعة للطب وليتسع الشارع فيما بعد للسيارات القادمة من العشار واليه، ولتختفي إلى الأبد سيارة أبو حسين البلوشي (موديل ٣٤) وكذلك سيارة عبود خورة وخضير السياب، حيث لم يعد الشارع يصلح للسيارات القديمة أو للسائقين الذين لا زالوا يحتفظون في مذياع سياراتهم بأصوات حضيري أبو عزيز وحافظ الدروبي أو صديقة الملاية.

ستظل اليعقوبية (المستشفى التعليمي الآن) بساطا أخضر في الذاكرة، نخيلات شاهقات متباعدات، فما أن تعبر الشارع الترابي الذي ينتهي عند بيت المرهون حتى يصبح بإمكانك الوصول إلى شط العرب حافي القدمين، دون أن تعلق بقدمك ذرة طين واحدة، فالأرض مفروشة بالعشب، سجادة من المران والحلفاء القصيرة، يغطيها الماء في المد وينحسر عنها في الجزر، والأطفال يصطادون السمك في الأنهر شحيحة الماء، بسنارات رخيصة، يربطونها بخيوط من القطن في عصي من القصب، يرون مثل حملان ترعى في الأفق الأخضر الفسيح الممتد.

عام ١٩٦٩ طفح الكيل بشط العرب فأغرق الخورة والبراضعية وما جاورها من القرى الواطئة، كانت الفخاريون في دوغة إسماعيل لما يكملوا بعد الكيزان والمشربيات والقلل التي بحوزتهم طينها، لكن الدوغة بمعناها الحقيقي كانت تعيش أيامها الأخيرة، فقد انتزعت الفخاريات الصينية والزجاجيات المستوردة زعامتها المطلقة في السوق، وحين دخلت الثلاجة الكهربائية منازل السكان في البراضعية كانت المياه تحاصر الدوغة بمن فيها، لم يشأ إسماعيل ترك القرية تغرق فأباح الدوغة بآجرها وأطيانها وأتربتها، بسنواتها المائة للناس، فهرعت لها، تناهبتها الأيادي، ليكونوا منها سدا قويا آمنا على طول الشط من جهة اليعقوبية، أوقفوا بها عنت الماء وصلف الموج المندفع.

بعد الفيضان بعامين أو أكثر قليلا، إندفعت جرافات البلدية لتزيل البيوت المجاورة لنهري المزاينة والمنتظر، ولم يبق من الشواخص الطينية المفخورة سوى دائرة البريد وبيت الدكتور صبيح وبعض بيوت الميسورين، كان الناس لا يعرفون عن الأطباء أكثر من معرفتهم عن توما هندو، مثلما لا يعرفون عن المحاكم والسجون غير الحاكم زين العابدين، وحين كان توما هندو يعالج حمى الملاريا بحبوب شجرة الكنينا، كان الأرميني

كشيشيان لا زال يعالج الحمى نفسها بالثلج وحليب الأبقار، في بيته القريب من نهر الخورة، والمحاذي للمرآب الذي يتحول آخرة الليل إلى مأوى لمهربي الشاي وسكائر الروثمان.لذا كانت باصات الخشب، المصنوعة محليا بيد نجم هوان، المحكوكة بالأيدي، والمصبوغة بالدملوك تدخل آمنة وتخرج مطمئنة للشوارع الفارغة إلا من العائدين من السينما على الدراجات الهوائية، ولأن شرطة الكمارك لم تكن غير سيارة مسلحة واحدة وثلاثة خيول في مخفرهم الكائن بيوسفان (يوسفان الشرطة) كما هي حتى اليوم، حيث يروي رئيس عرفاء الشرطة محيبس قصص بطولاته في ملاحقة المهربين على حصانه الأشهب، دون أن يؤكد تمكنه من إلقاء القبض على واحد منهم.

ذات يوم أخذني أبي لزيارة بيت أخوالي في البراضعية، أو الخورة، حيث لا تنفصل هذه عن تلك، اصطحبني أبن خالي سلطان جهة اليعقوبية، ومنها إلى قبة طينية، مهدمة في بعض حواشيها، تضم جوارها قبورا صغيرة واطئة، كنا ننط عليها، ما كنا نراعي لها حرمة، كنا صغارا آنذاك.. ولما تكن للموت رهبة الأيام هذه، كنت أسمع وشوشة الماء في النهر القريب من المقبرة، كانت القبة لمنصور بن علي، (هو منصور وابو ه علي) ألا يخيف هذا الاسم؟ لكن الزمن صار قاسيا فيما بعد، فمات منصور ثانية، حاصرته بيوت الميسورين، فذهبت الخورة بأكملها إلى البراضعية، حتى لم يعد احد يقول الخورة.

سيمر زمن طويل، أيام وليالي كثيرة، كي أتذكر بأني كنت وحيدا، الليلة قبل البارحة، من السنة التي مرض فيها الراوي، مرضه الطويل، لكني لن أنس وقوفي عند مفترق الطرق بين البراضعية والخورة ومناوي باشا، حين جلس يحدثني عن اليعقوبية، التي كانت تمتد حتى جسر الخورة الخشبي، وقد أعاد علي حكاية جنيبة طالب طلال التي تعطلت عرض البحر سأتذكر بانه قال لي : في الليالي الباردة، كثيرا ما تخذل الريح الأشرعة.

باب عويسيان.. البرهامة نازل

ولمًا كانت الطريق إلى البرهامة تأتي من الخورة، وكوت باش كاتب، ودورة بريج، مقبرة باصات الخشب، حتى المفرق، مفرق السراجي، ومن ثم المنارة، التي لا أعلى منها شيء هنا حتى اليوم، ها نحن نعبر الجسر، جسر السراجي، قال لي: يلله يلله، قل لسائق الباص: البرهامة نازل عمّي.. منذ مئات السنين، ولما ينقلب الصاحب علي بن محمد زنجيا أبيض، كان الفجر في أبي الخصيب ينعتق فرحا، على أقفاص الجريد وزنابيل الخوص الملون، التي ظلت تنحشر في الحافلة الخشب، كل يوم، تلك التي كانت تجرها الخيول، والتي صارت تعمل بالزيت، فيما بعد، والمملوءة رطبا وقثاء وعباءات، تلك التي تأخذ الطريق الموحلة إلى المدينة، وفي المنعطفات الكثيرة، عند مخارج السكك المتفرعة من الطريق الأم، تنبحها كلاب الفلاحين والملاكين معا، فهي تصر على إيصال أسيادها حتى مواقف الحافلات تلك، في البصرة القديمة أو في العشار، وحين يأخذ الراكبون مقاعدهم على الخشب الندي، تغيبهم ظلمة الفجر الأول، التي ظلت عالقة في النخل، عندها تؤوب الكلاب نابحة بعضها، غير عابئة بما يعترضها من القصب والحلفاء والقناطر.

والفجر في أبي الخصيب قصير كصلاة النفل، ركعتين سريعتين، على نهر مرة، وتحت غصن توت جامد مرة أخرى، وفي السطر الأخير من حكاية الشمس النائمة خلف القرى، هناك، تتوحد الروح مع بارئها، تكون السماء أندى، والرب أقرب، فهو، برواية أحد فقرائهم، يحف الشجر الساعة هذه، ولما كان الوقت ضيقا لديك، والحافلة المتهالكة على الطريق لم تترك لك رؤية الأشياء كاملة، قل للراكبين أن يأمروا السائق بالتوقف، قد لا يسمعك حين تناديه، فالرجل منهمك يقص على جليسه قدم الجسور وسعة مبنى

دائرة الجمارك عند صدر نهر الهويرة، والطريقَ والسائقين الأوائل عليه، والملاكين الذين انحرفت الجرافات عن بساتينهم، حين شقَّ أول مرة، مطلع القرن الماضي، كما أن كوابح حافلته لن تستجيب لقدمه من المرة الأولى، ولا الخامسة، هيا قل له الجملة الأثيرة لديه (البرهامة نازل عمي..) لن تقف الحافلة في البرهامة طبعا، ستتجاوزها بقليل، مائة متر، مائتين، وربما أكثر.. فلا تتذمر، لأن الوقت في أبي الخصيب ليس من ذهب أبدا، لكن المسافة من سندس بالتأكيد.

هنئذا أقتفي خطوات شيخ في الثمانين، يصطحب أبنه إلى المدرسة الأولى في عويسيان، بيت الحاج عثمان ناجي، الذي بناه والده على ترعة الهويرة التي تكرع حصتها من المد، من نهر السراجي العظيم، ومدافع الحرب الأولى لم تهدأ بعد، وما أن تعبر جسرها الخشبي، حتى تلج الديوان الكبير، المدرسة، الصف المشطور نصفين، وفيما يعني النصفُ الأولُ الصفَّ



باص خشب

الأول، يكون معنى الثاني الصفَّ الثاني، وحين يبدأ الشيخ الأستاذ درسه الأول يبقى طلاب الصف الثاني مستمعين، منتظرين انتهائه من درسه هذا، وهكذا حتى يبلغوا جميعا مع شيخهم الساعة الثانية عشرة من النهار، ليأخذهم إلى المسجد القريب، الذي بناه أحدُ محسني أسرة آل باش أعيان، قبل أكثر من ثلاثة قرون، ومن ثم ليقبر تحت نخلة في بستان (أبو حيمد) وليصبح مزارا فيما بعد، وبالأباريق النحاس يأخذ الفقراءُ المرضى بالبلهارسيا الماء من ترعته المحيطة بضريحه للشفاء والتبرك في مساءات الجمع والأعياد.

نحن لا نعرف اليوم، ما إذا كان الأستاذ الشيخ يؤم صبيته للصلاة، أم يأتم معهم بإمامة شيخ المسجد، لكننا سنعرف أنه سيعود ليلتقي طلابه في المدرسة ثانية، قبل أن يتلقي بهم لقاءه الأخير، عقيب صلاة العصر، كي يكملوا حصتهم المسائية، التي غالبا ما تكون في الشعر والرسم والمرح.

الدشداشة البيضاء، والعرقجين التي تغطي الرأس الأشيب الصغير، والنعل الزبيري (الخرازة)، وحقيبة من الخوص، عروتها ليف خشن، هي عدة الدرس والمدرسة معا، على الشيخ أن يعلم طلابه القراءة والكتابة وحفظ القرآن والحساب، وشيئا من علم الحياة الأول، لذا كان على طلاب الصفين الأول والثاني أن ينتظروا طويلا، قبل أن يكملوا دراستهم في مدرسة السراجي، التي بنيت فيما بعد، على شكل المدرسة المتعارف عليها اليوم وأن يسلكوا الممرين الحديديين الضيقين، اللذين يمتدان طويلا معهم في الرواح والمجيء، ولأن القادم من عويسيان أو الخارج منها، (للبصرة أو لأبي الخصيب) عليه أن يقول لسائق العربة الخشب (الباص) العبارة الأثيرة نفسها، التي لازال السائقون يودون سماعها إلى اليوم (البرهامة نازل عمي) ليقف قريبا منها، أو بعدها قليلا.. ترى من هي البرهامة، أو ما هي؟

في أبي الخصيب يستعير النهر أسم القرية التي عليه أحيانا، وغالبا ما تستعير القرية أسم النهر الذي يخترقها، كذلك الحال مع الأشجار والقناطر والبيوت، والبرهامة شجرة تتوسط الطرقات الثلاث، التي يدخل منها أهل عويسيان منازلهم، زرعها قبل نحو من مائة سنة حسن الحاجي (الحايي) بلفظهم، وظلت تعترض الطريق الموصلة لأبي الخصيب والبصرة معا سنوات وسنوات، حتى افتتاح معمل الأسمدة الكيماوية، في أبو الفلوس، نهاية الستينات من القرن الماضي، فقد قدم رئيس الجمهورية بسيارته الكبيرة، وجنوده الصحراويين القساة، ولما كانت الطريق ضيقة عليه وموكبه، قطع الأشجار وهدم البيوت والمحال والمقاهي، فامحت الظلال الكثيفة التي ظلت تغطي الطريق مئات السنين، وسالت الشمس حارة، لاهبة لأول مرة على الإسفلت، الذي ظل باردا رطبا منذ عهد الولاة العثمانيين والأصحاب الانجليز.

ويقول أهل عويسيان أنهم وإباؤهم، ظلوا يجلسون تحت البرهامة سنوات وسنوات، فهي فيؤهم في الحر، وهي شمسهم في القر، وهي دار استراحتهم أيام الفيضان، حيث يعطل الماء الفائض الكري والحراثة والزراعة، يقضون النهار تحتها، متسمعين أخبار الحروب وتتويج وهلاك الملوك وسقوط الوزارات، ، الأخبار التي ينقلها المغامرون القادمون بالمهيلات والباصات من الشعيبة والزبير، والبرهامة هي شجرة عملاقة ضخمة، شاهدتها واقفة، مورقة، مزهرة، محشوة بالعصافير. وشاهدتها مرمية على الأرض، جثة تقشطها فأس عودة عبد النبي السميدة، الذي حملها على ظهره، وسجاها عند باب داره، مستجيرا بها حطبا لكل شتاء، تركت عند اقتلاعها حفرة عميقة، تفوق الوصف، كنا نلعب حواليها (الحلت والولي ياك)، وكنا نلبد لا هين، في جوفها، دون أن يشعر بنا أقراننا في اللعبة، وقبل أن تقدم البلدية على اقتلاعها، في ليلة غامت فيها الدنيا، وفي لحظة لهو لم

نتبينها، كنا قد خلدنا لنومنا باكرين، كانت قد احترقت، ألقى أحدهم في جوفها عقب سيجارته، كانت محفورة من جذعها الكبير، وفي الهوة العميقة التي آوتنا صغارا، وفي الليل الذي نمناه متعبين، حالمين بأغصانها التي ظلت ترف في عيوننا، التهمت النار الشجرة العملاقة، ولم يتمكن أهل القرية من إطفائها في الصباح، حتى قدم فريق من رجال المطافئ، بسيارتهم الحمراء السريعة، يتقدمهم صوت جرسها المعدني، ليتمكنوا من إخماد النار التي استعرت فيها، وأحرقت أخضر أغصانها ويابسه.

البرهامة، المعيبر، مقهى أبو نوري، البتيرة، كاع أحمد الورد، بيت سيد سلمان، نهر عسكر، كاع أبو حيمد، سكة بيت يابر، بيت عبد الحليم، سكة بيت أحمد عبد العزيز، بيت شليوه، أبو كناطر، كاع أبو الخيل، كاع البيلت، الوسطاني، بيت مريهج، أم ركيبة، كويد الليف، بيت زاير معتوق، شريعة العجم، شريعة النسوان، طرنبة السبيل، ساير بن عون، بيت عزيز المهمد، كاع الفدائي، شيخ أنس، كاع عوض، كاع سيد فتاح، الكوفة، شارع ابن كاولي، بيت عيسى المجفن، بيت مكينو، الكوفة، شريعة أبو ريحان، مأتم أم سيد جاسم، الشعشاعي، جبل الغملاس، اليريب، أبو الكشك، المظيليمة، كاع الخضيري، البحيرية، خريبط، السبيل، الدويشية...... ياه ه ه ه ه ه ه كل هذا في عويسيان؟ كيف استطاعت القرية الصغيرة هذه أن تلم الجغرافية الواسعة هذه؟ كيف استطاعت ذاكرة الصبي الخارج من مدرسة بيت عثمان ناجي أن تحفظ الأسماء كلها؟ وتفرق بين النهر والبستان والعائلة والشريعة والجبل؟ كيف؟ وأنى لهذه الروح اليوم أن تصطك على الحلم الأخضر ذاك، عبر الخراب الكبير هذا؟

هذه هي عويسيان، المسماة في سجلات دائرة الطابو بعويسيان والكوفة التي لم يفرد لها الشيخ عبد القادر باش أعيان، في كتابه خطط البصرة

سوى أسطر قليلة، فهو يقول إن تسميتها تعود نسبة لأحد ملاكيها، عيسى، ولأن النـاس تميل إلى التصغير والتخفيف صغروا الاسم إلى عويس، وبإضافة ألف ونون النسب أصبحت عويسيان، لكن أحدا من ملاكيها لم يرد بهذا الاسم، بحسب رواية أكابر أهليها، عن كابرهم، بل لم يسمعوا من أهليهم من يؤكد رواية الشيخ.

وسواء، أطلعنا الشيخ إبراهيم السبيعي، إمام وخطيب مسجدها، أم لم يطلعنا على مخطوطات ووصايا، كتبها أجداده، جاء فيها أن تسمية القرية بـ (عويسجان)، من العوسج، (النبات البري المعروف) تظل الرواية تصاغ بطرائق لا تنتهي، لكنها تبدو الأقرب هنا من رواية الشيخ باش أعيان، فلم يكن أسم المالك عيسى وإنما إياس، ثم صغر الاسم إلى أويس، وصحفت الكلمة من أويس إلى عويس، ولأن المنطقة لم تكن حديثة العهد، بل هي من قصبات القرن الثاني أو الثالث الهجريين، فقد ذكر أناس، (بينهم من سكنها أجدادهم قبل نحو من ألف سنة)، إن القرية كانت مسورة ومبوبة من جهاتها الأربع، تغلق أبوابها عقيب صلاة المغرب، فباب شمالي يقابل مسجدها على الشارع العام اليوم، وثان عند مدخلها من جهة الكوفة، بيت سويد، وثالث بالقرب من بيت أبو حاجي، ورابع جنوبي، عند مدخلها من جهة النخل، عند سكة بيت أحمد عبد العزيز اليوم، أو بيت عبد الرضا المحمودي، فهي لا تبعد كثيرا عن أحد أشهر أبواب البصرة، باب السراجي الذي يرد ذكره في رواية الرحالة نيبور، لكن الأسوار تهدمت اليوم، ولم تعد المعالم واضحة، تلك التي ظلت شاخصة حتى عهد قريب، ولم يبق منها أثر، سوى الجزء المسمى بالكوفة، التسمية كما هو معلوم من الكوف، وهو الطوف من الطين، وفي اللغة كوَّف فلان داره، أي أحاطه بكوفان، أي سور، ومهما صغرت القرية ستظل حدودها الغربية ممتدة حتى نهر الجريف، (اليبرف) الذي يفصلها عن أم النعاج.

ترى هل أتم الشيخ درسه؟ وهل توقفت الحكاية عند الحد هذا؟ يقول فلاح إنه وفي نهر خريبط، الذي يلي نهر أبو الكشك تماما، والذي لم يكر بعد، أي لم تدخله الحفارة (البوكلاين) عثر على ثلاثة جراء للحيوان المسمى كليب الماء (جليب الماي)، هذا الذي يشقق أبوه شباك الصيد، ويعبث بالقناطر وصوابيط العنب، أكد أنه أشفق على الجراء الصغيرة البلهاء، فتركها تبحث عن والديها، وسط القصب والمران والحلفاء التي حالت دون رؤية جحورها هذا، كليب الماء الذي ظل الناس يسمعون صوته، في الليل، جائعا ربما، أو مفتقدا صغاره لم يره أحد منهم! في عويسيان أشياء كثيرة نسمع عنها كل يوم، لكننا لا نراها.

بـاب أبو الجوزي

نخل قليل يفصل عويسيـان عن عبداللليـان، وسوى قبتين أتى الدهر على أحداهمـا لا يجد العابر شيئا يخشاه، لكن المقبرة التي تحـاذي الطريق المحيطة بضريح الشيخ محمد أبي الجوزي ظلت تخيف المـاشين الحفاة في الليل، وحتى راكبي الدراجات الهوائية، الذين يتأخرون في الليل على الأنهار، من محبي الكيف والطرب وخشابة ربيع وأبو عتيكة .. كان التراب المتنـاثر من القبة، وهي تنهدم شيئا فشيئا يخيفهم، لم يبق من المقبرة شيء اليوم فقد أزاحها العرب النـازحون من الهور..

التراب، أبجدية الحياة، خطاطة الموت الأولى، جُبِلَ الخلق منه، واليه يصيرون، ثم يمتزجون فيه، فيكونون هو، ويكون هم، هذه الواحدية الأزلية التي دأب الإنسان من جانب، والحياة والموت من جانب على تجاذبها، كيف سيتسنى لنا نحن (التراب) أن نتحدث عنهـا..؟ وبأي حق نضع العلامات والبيانات لصحة هذا وبطلان ذاك؟ أو قوة هذه وضعف تلك؟ بل كيف نستطيع رسم حدود الزمن، نُشَهر به، أو نستنطقه، نتأمله أو نهمله؟ ونحن كائنون منه ومتكّون منا؟ كيف؟

نحن، الأرض والنهر والنخل والقطعة الزرقـاء الوحيدة المتبقية من السمـاء، وقبر الشيخ (محمد أبو الجوزي)، المسوّر بحـائط واطئ من الذكريات والطين الأحمر اللازب، الإيوان الفقير المنقرض الذي يدور حول الضريح الأخضر خلل الفضاء الضيق الذي يحاصره الآجر المتهدم تباعا، السقف المسود عبر التاريخ العميق للأشياء، متوالية الشمع المحترق بطيئاً كي ينفي عن الشيخ تهمة الوحدة والغربة والانشغال الدائب في ليالي الجمعات الحزينة، جرار الفخار التي تكسرت أو انتزع أعناقها الزمن عبر انتزاعه المتكرر، لأعناق المخلوقات، الفسيل الصامت قرب النهر الميت

أسفل المسنّاة، الدلاء الصدئة التي سيتركها أهلوها المهاجرون في الفلوات أبدا، ترى أين نمضي بهذه الأسوار؟ بهذه اللعبة المقيتة لعبة الموت النكراء، أين؟



أبو جوزى

سيكون الوقت كافياً عند مستعمل الطريق إلى أبي الخصيب، ليرى قبة صغيرة من الطين، مجصصة، شبه بيضاء، تحف بها العربات ذاهبة وآيبة، بعيد مغادرتها قرية (عويسيان) البرهامة ببضع خطوات، مستقبلة قرية عبدالليان التي هي لعبدالله بن أبي بكرة، هكذا كما ترد في طبقات ابن سعد، وكذلك هي في فتوح البلدان للبلاذري، أو المحولة (محولة ابن زهير) التي هي لعائلة آل الزهير المعروفة على شط العرب كما يوردها البازي رحمه الله. حين يقول: (ولهم فيها قصور كانت عامرة أيام العهد العثماني، ومنها كانت تدار شؤون البصرة أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجريين، والتي يقول عنها أحد زجالي ذلك الزمان:

بمـــحولة ابن زهــــير جَذمَنْ يلْــبلام
وبشريعة الحلوات عونه الغفه ونــام

تنطفئ تحت هذه القبة الفقيرة قريتان صغيرتان (كوت الضاحي وكوت الشافي) اللتان تمتد الأرض تحتهما حتى الجرف الأخضر المنبسط لشط العرب، حيث يقع بستان وبيت سيد تاج، وبيت العييد، وبيت الشيتي وغيرهم، من الذين إستوطنوا القطعة من الارض هذه، منذ مئات السنين، . ليس بعيدا عن قرية صغيرة أخرى، لم يبق منها الآن سوى اسمها في سجلات البلدية ومديرية طابو أبي الخصيب تدعى (فريج الصخر) وقيل الصقر، هاجر أهلها، وتفرقوا في القرى والقصبات أو ابتلعتهم الحياة بطامورتها المظلمة.

هذه القبة هي بقايا مرقد الشيخ محمد أبي الجوزي، كانت تحاذيها قبة أخرى مفتوحة من الأعلى قيل هي لزوجته أو سريته، لم يبق منها الآن شيء فقد أتت عليها يد الأيام وانتزعتها من جواره بعد عشرة طويلة فوق التراب وتحته.

قلت: إني لأنظر في التراب فأبصر فيه الكثير من الخطى، أقدام عريضة، مفلطحة وأحيانا بأصابع قصيرة، ربما لأطفال ماتوا توا، هل يمشي الموتى في الليل، بين القرى؟ فقال :

يتملكني الخوف، وترتعد فرائصي، حين أمرُّ على المقبرة، أي مقبرة، في أبي الخصيب مقابر كثيرة، (كويد الليف، ساير بن عون، سيد غريب، أبو كوصرة أو في تمام الأربعين بميتان... بمهيجران قرب الجسر.. هذه المقابر الصغيرة، مقابر الأطفال، كانت تتوسط الطرق المؤدية الى بستاننا على النهر، ولطالما أرعبتني قطة سوداء، في ليلة شتوية، مظلمة في طريق عودتي الى البيت، حيث كان يتوجب علي إيصال عشاء الناطور.لكم كان يخيفني تعثر العجلات في التراب؟

المقبرة التي تقبع في ذاكرة الطفل الذي كنته نسيج مخيف من الرؤى والتخيلات، رعب حقيقي من الداخل، خضراء ام الليف، العبد المسلسل، وام المساحي هكذا تتشكل المقبرة في الروح وتنخر القلب وترعد الفرائص، فتراني كلما اردت اجتياز الطريق، أبسمل وأحوقل، وحدث ان حفظت آيات كثيرات من سورة يس، تملصا من ذلك الرعب، ومجلبة للطمأنينة.ولما صارت الكتابة ديدنا قرأت:

خفف الوطء ما اظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

لكن المعري جعلني أتحسس الأرض، وامسك يدي ووجهي، وانظر لها فلا أبالي أجئت من المقبرة ام جاءت مني، أوقفت عليها؟ ام وقفت علي؟ هكذا مثلما يقول الشاعر روبرت فروست :انا لا اشك ان حجارة السجن والبيت الأبيض جاءتا من مقلع واحد.

لكن، اذا كان الوجه المشرق للمدينة يحيل دائما الى الجانب الحي منها، شوارعها، مقاهيها، حدائقها وضفاف انهارها التي تصنع بهجة ابنائها، وتشارك فيها، فان جانبا يظل طي الكتمان، يواصل رسائلة الخفيفة على الرغم من صمته الطويل، اذ يكون بمقدور المقبرة ان تشكل على الدوام نقطة أخيرة على سطر، وفراغا فسيحا في المكان، يشكل بزهد قبوره العلامة التي تشير لوجه المدينة الأخر، وتكشف في لحظة عابرة عن القدرة التي تؤاخي بين الحياة والموت في مكان واحد.

والبصرة، مثل كل المدن الكبيرة، التي تقيم مع المقبرة علاقة غريبة، فهي تمنحها من الزمن ما يكفي، لتكون مهجعا لنهايات ابنائها، ثم تعود لتمد يد الحياة، هذه البقعة من الأرض، فتحولها الى ملعب او حديقة او مركز لالتقاء طرقها. مستجيبة لنداء الحياة، وهو يجدد ويضيء منذ أقدم الأزمان.اذ تشير كتب تواريخ البصرة وإسفار حياتها الى مثل هذا التحول، وهو يأخذ بيد المدينة من حال الى حال...

يمكنك، وانت تمر أمام الإعدادية المركزية في العشار ان تتصور ما كان عليه موقعها قبل عام تشييدها ١٩٢٢. حيث ستسمع جلبة القوات البحرية العثمانية، وهي تشيد مخزنا للفحم وقودا لبوارجها التي خسرت الحرب، ثم تنظر فترى مقبرة يلوح فيها ضريح احد قواد البحرية.

(أنت لن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال طولا.) وما انت إلا قبر تأخر قليلا، بل الأنسان يحمل قبره بين جوانحه، اينما توجه، ومهما بلغ.

ذات يوم اقترح السيد محمد صالح الرد يني، رئيس بلدية البصرة عام ١٩٣٣على وزارة الداخلية ان تنقل مقبرة ام البروم الى مقبرة في المحلة المعروفة الآن بمحلة محمد جواد. التي تضم قبور المسلمين في البصرة منذ مئات السنين، وقد استحصل اقتراحه موافقة الوزارة فصدر الأمر وقضى بوجوب انتقال المقبرة من مكانها في قلب المدينة الى محلة الشيخ محمد جواد، الزاهد حيث قبته المهدمة المحاطة بمئات القبور الصغيرة.

هكذا، بقرار من البلدية تصبح مقبرة ام البروم جزءا من المدينة، حديقة عامرة، تروى بالماء الرفاة (الفرات) كما يشير السيد رجب بركات في كتابه بلدية البصرة، لكن الموتى لا يطالبون أحدا بحق، وأمنهم مهدد من قبل مديري البلديات دائما، فمقبرة الشيخ محمد جواد لم تكن لتسلم من جارفات ومعاول البلدية. فقد شطرها شارع ١٤ تموز، قبل نصف قرن من الزمان إلى نصفين، وغير ملامحها، ودفع بها الى ان تصبح جزءا من المدينة، متصلة بمدينة الخليلية والمجيبرة والمشراق لتطوى صفحة في الموت، ولتفتح صفحة في الحياة، كذلك كانت مقبرة عز الدين القريبة من سوق السمك اليوم، بقبورها القليلة، حيث يجعل منها الجيش العثماني ميدانا لتدريب قطعاته فيما بعد.

ولعلنا لا نتصور أن محلة مقام علي والأرض المحيطة بالمسجد والمقام والمتاجر كانت يوما ما مقبرة واسعة، تتصل أجزاؤها بالمقبرة الام (أم

البروم). وإذا كنا نتأمل اليوم حركة الناس في رواحهم ومجيئهم، ونسمع ضجيج المركبات في المكان، حيث نجلس في احدى المقاهي المطلة على العشار، يمكننا ان نتصور ساحة كبيرة محيطة بضريح اخضر، تناثرت فيها بعض القبور الصامتة، تحط على منحنيات قبورها عصافير قلقلة سريعا ما تحلق لتنظر من الأعلى ليد الزمن وهي تمحو وتكتب ما شاءت.لكننا سندرك ان المكان الذي سيمحى لن يغيب أبدا من ذاكرة المدينة.وهي تجمع في أرشيفها ما لا ينتهي من التحولات.

وحين يذكر الشيخ عبد القادر باش أعيان في كتابه خطط البصرة:ان محلة ديم حزام في الزبير، وهي منطقة منخفضة يجرفها السيل في موسم الامطار، وتصبح مستنقعا يغرق المنازل، يقول: أراد احد امراء الزبير في العهد العثماني ان يبني سدا فيها، فراع المشتغلين فيها منظر الجماجم والعظام، في مقلع التراب، هكذا يروي الواقعة للشيخ من شاهدها بنفسه، لكن راوي المقبرة الجديد يقول : ان المقابر تتشكل عشوائيا، بل هي المكان الوحيد الذي يتشكل دون تخطيط.المدن القديمة تخطط لكل شيء تتطلبه إلا المقبرة. ولو كان ذلك ضمن تصورها لأمكننا أن نتعرف على قبور الكثيرين.ويقول إن قبري الشاعرين البصريين الكبيرين جرير والفرزدق يقعان في مدينة كاظمة في الكويت، هل لنا أن نتصور مقبرة كبيرة تضم رفاة عظماء المدينة كلهم، لو تحقق ذلك لنا، انه متحف للحياة، متحف الذين يخلدون الحياة دائما.

باب الروح والجسد

في اليوم الأول بعد الألف، وجدته واقفا بين بابين مغلقين، بمئات المسامير الصدئة، بابي الروح والجسد، كان مرهقا، خلق الثياب، أشعث الرأس، في ساقيه كدمات من سار ليلا، واصطدم بعشرات الأشجار، من وقف طويلا بين يدي معذبه، خشيت أن أسأله عن بيبان الأنهار، القرى، البيوت، المساجد.. تلك التي لم نفتحها بعد، قلت، وقد هالني منظره:لم أنت هكذا؟ ما انت فاعل بنفسك؟ من فتح عليك الباب هذا قال: هو..

وكمن يفتح ضمادة بآلاف الخرق، راح يقرأ علي أوراقه، ورقة ورقة، وكلما خلص من واحدة رماها في الريح، حتى سد على العارفين بيبان المعرفة...كانت الريح آخر المتحدثين معه.

كثيراً ما كنتُ أسألُ الجسد، جسدكَ المتهالك على الأريكة الآن، هذا المستتب، كيف تنبسطُ الروح...؟ بل كيف يتغلبُ المتحركُ على الساكن أفيه؟ وهل استفاقَ الثاني من سكْرِ الأوّل...؟ وقد أبدو حزيناً لأني تسلّمتُ الخطابَ بالرفض وعدم الاستطاعة والندم... وقد لا أبدو كذلك، فلا ينقص ضوؤه في روحي شمعدانا، ولا أُكذِّبُ ريحاً منه لا تقصدني، أُجِلُّ انتصارَهُ علي، ولا تفرحني هزيمتُه بعيداً عن يَدَي، لا أفرّقُ بين ذبوله خارجَ أنفاسي أو إحتراقي خارج أنفاسه، فما كان ليترك لي فرصة الاختيار.

خُلِقتُ له، وخُلِقَ لي، وخُلِقنا معاً من أجل لحظةٍ لم نبتكر نهايتها بعد. أُحييه إذا مات، وأموت حين أُحييه. صليبهُ ومسيحهُ أنا، وكنت قد اخترتُ ماءَهُ على المقاصد كلّها. فكنت مَفزَعه، وكان مَفزعي، وعنده نزعتُ ريشَ الشكّ من جناحي، فَطُرتُ عليه. أبعَدَ من سمائه كان جناحي، لكن كان يملك الفضاء ولا أملك البعد. وأرضه كلّها تحت خَفْقِ ريشه، فلا أطير إلاّ مشدوداً إليه، وهو يُومئ أنْ ابتعد، ويُومئ أنْ اقترب، فألهمني سُؤددَ الحيرة

والذهول، وأبعدني عن الرفض والقبول.

يا أيّها الجسدُ الخالد، أيها الأبدي، ها قد أذِنَ انتصارُكَ لهزيمتي أن تولد، كان لابدَّ من ذلك، هل كنتُ أبحث فيك عن صحراء قلقي الشاسعة، هل نلتُ من سرابكَ شيئا، إني لأستثني النرجسَ من احتضار الدمع، وأستردُّ الجلَّنار من المغيب. هكذا كمن يختلف مع مَهْر على عشب، أجثو أمامك أسألُ الليلَ عندكَ أن يطول، مثلما أعترض على إشراك البنفسج في الكرنفال.

كنتُ سأحترقُ لولا ثباتُكَ في المرآة، ولو لم تكن قادراً على ليٍّ فرحي لانهمرتُ آساً عليك،

أبداً لم يكن قصدي أن أستبيحَ النور الذائب سرّاً على القطيفة، لكني كنت أشكو غيابك على الستائر، وأنت تعلم معنى حضورك هنا. رائحة الطفولة فيك، هذا الحليب الأبدي، الغاطس في حضن الأريكة البلهاء،

لا تعترض على إنحسار ثوبك، ولا تقوى على شتم قرنفلة. عبْرَ صوتك كنتُ أسمع التحاف الطبيعة بالماء، وبزوغ اليابسة، أردتك أن تغلّبَ المعنى على السؤال، فغلّبتَ السؤال على المخمل، وليس بمقدور الثياب أن تغمر الجسد، أو تصنع من النسيج مجهولية له، هل كان الثوب إلا تجلياً آخر...؟ هل انتفعَ الثوبُ برحيل الجسد... ؟ هل تسعُ قبعةُ اللفظ معنى الألم ولا يختفي هذا إلا بحضور ذلك. كلاكما مجهولٌ وأبدي، إني لأعلم أنَّ معرفتك ناقصة، وإني لا أبلغ الخلود إلا بك، مثلما لا تبلغ الندم إلا بي. وهل كان الجسد (خزانةُ المعنى) غير انهمار اليابسة على الماء. هل ينفع مع المناجاة النظر، هل يبتلُّ الكفُّ بندى التوسل. أينقسم اللفظ وتتوهُ اللغة، وقد أيقنتُ أنَّ الجسدَ فناءُ الروح. وأنَّ الروح غَمامةُ الجسد، فلا يختفي هذا إلا بحضور تلك، وإني واجدٌ على ضَعف بصري، واستخفاف الأمل بي. إنّ الباب التي أتيتني منها هي ذاتها باب الشجن والمسرات الناقصة. وقد أبلغ بك إيوان المعنى وقد لا أبلغه. لكن نقصان معرفتك نقصان الكمال عندي، وأنا

عــارفٌ بــالمران أبــجـديــة الجسد، وتـعـرف أنت (بـلا علم) أبـجدية الروح. أستميحك لجهلي كتاب النور الذي في جبينك. واستغفرك قلة حيلتي وحيائي. فما كنت أظنُّ الجهل بهذا الكمال لديك، ولا حسبتُ أن تقودني هكذا لبركة المعنى الكبير، وليس معي غير حقيقة ولهي بك، فانظر ماذا أنت صانع بي.

لا أريد لك الفناء فمن أنا حتى تفنى من أجلي، كل جسد يتوعده الحدثان ويستدرجه الموت.

كان لابدّ من عبورك عليه ـ جسر الفناء ـ، الغابة المثلى يا خافقي هي غابة الألم، ذاك الأرخبيل المر، الضفة النَضِرَة. فأترك له، أُتركْ لها أن تُستَبَاح الحديقة النائية، و دَعْ بهائمَ الجسد ترعى اللغة الأولى. آنَ له أن تلوّثه الأيائل وتسبره الوحوش. فالذي لا يؤكل، الخشنُ والغريب. أما أنت أيها العذب، أيها الندى المتجمع على الدهور، فقد آن لسدودكَ أن تنهار ؛ آن لعطرك أن يُطوى ويُغلب. وأن تفرح بضعفك وجبروتك معا.

خُلقتَ لكي تنهار. وقد قالت الناس : سُمِّيَ السترُ سِتراً ليُهتَك، فانظر لأسمائك وهي تُنسَى، وانظر لشمسك وهي تغرب. هل تميل إلا على رأسك، وأنا وحدي، أنا بهذا الملكوت افتدى كتفك بمطالع الدنيا كلها وأتحدّى بجبينك الأرضين.

كان لابدّ من عبوركَ على سرفات الخطايا وهي تتقلب بترابها الأزلي تحت أقدام الخطائين الأول. ولأنّك لم تذق تفاح النادمين لم تستطعم الاندحار. ولو رأيتَ كيف تُفسِّرُ العصافيرُ القبل، لو كان فؤادك سعفةً وحيدة في الريح، لأدركت معنى إنفلات البراعم واستباق الوعول

إجعل لغدكَ نصيباً في جسدك هذا، وارفق بحرائقه وصحاريه. فما كانَ اللهُ ليُنبتَ زرعاً لم يخلق له ماءا. وما أتى بهاجرةٍ إلاّ وأكرَمَها بالظل. فلا تُعطلَّنَ بعضَ صفاته وهو الغفور. ولا تحرِمَنَّ نفسكَ من مرضاته وهو

العَفو. تَقَرَّبْ إليهِ بمعصيتكَ يتقرَّبُ إليكَ بلطفه. واسأله على خفقِ قلبك وارتجاف أقاصيك، فقد خُلِقْتَ للحظات، ومنحكَ الرُّخَص. هو الذي يحبُّ أنْ تُؤتَى رُخَصُه.

لم أكن يوماً لأنشغل عنك. ولم أَدْعُكَ للذّةٍ محرّمة. وقد وَهَبَني الشرائع وأباح لي السُنَن. فالأصل الإباحة. ورأيتُ الروحَ الكبير فدعاني قلبي له طمعاً في محبّته، فتنزَّهتُ معه عن صغائر الناس، وأعطيتهُ ما خُصِصْتُ به من الود.

وما انطبقت عليه الحنايا من الأمان. وملأتُ قلبَهُ ما انفردَ به من الألق والجمال. فانقطعتُ لمحبّته فردا، ووقفتُ على انعتاقهِ بين يَدَيّ. فكان عندي خُلاصةَ النهار، وانطباقَ الجفن على الجفن. أضمُّهُ فلا تسعه الأضلاع. وإني لأُحِسُّ لحظتَهُ تخترقُ أبدي. حتى وَددتُ لو يَيْأسُ الرأسُ المفجوعُ من مقدرتي فيفيق. لانسللتُ من المكان إلى العُري. وكنت قد مَسَحتُ على الأهداب الطويلة العتماء ضُحَىً كاملاً لأستبينَ الليلَ من النهار، حتى أخرجَتني الأحزانُ إلى الأحزان. ومعها اكتويتُ بنارٍ لا تعرفها النيران. فأنا في حَضرته سكرانٌ لا أجدُ الطريق. أبعَدُ من يدي مؤانسة الصديق. وأقرَبُ لأنفاسي أنفاسُ الغريق. لا أجدُ في يدي ما أحتالُ به. ولا يُغمى عليّ فأنتبه. أحبُّهُ لانتصاره علي، وأبغضهُ لرجفةٍ في يَدَي. فلا قربُهُ مني أدناه إلي، ولا بُعدُهُ نسيانٌ لَدي. فالجسدُ وعاءٌ والروحُ محتوى. والجسد قحفٌ والروحُ لطف. الجسدُ من تُرابْ والروحُ من أمرِ الله. والروحُ مخلوقٌ قبلَ الجسد، وهو قديم والجسد محدث. الجسدُ يَبلَى والروح لا. الجسدُ ينطقُ والروحُ تومِئ.

فأينَ أنا... ؟

أينَ أنتَ... ؟ أينَنَا... ؟

باب صورة الجَمال

في اليوم الأخير من رؤياي له، قال أتذهب للسينما؟ قلت كما المتعجب، وهل يذهب الناس للسينما في البصرة بعد الذي صار؟ قال:لا.لكني أبحث عن صورة إلتقطتها قبل أربعين سنة ! علي اجدها لدى المصور الأرمني، قلت :الذي قبالة سينما أطلس؟ قال : هو كارو، بعينه، فأخذ بيدي إلى شارع الوطني، وحين تأكد له المكان، أمرني أن اكون عند الباب، ريثما يبحث والمصور عن صورته، التي التقطها قبل أربعين عاما.... لم تنل الفؤوس والمعاول من فتنة سيقان حوريات البحر النائمات في ساحة الطيران، على نهر الخورة، حوريات قيس العمر، اللواتي كن يطوقن نافورة الماء الحجرية المتدفقة وسط الساحة، والتي هلك عشبها، وراحت خراف الرعاة الجوالين تقضم الجذور اليابسة، أو ما تبقى منها في ظل الانفلات البلدي الذي ظلت تشهده المدن العراقية السنوات الأخيرة، لكنها أحدثت بثورا واضحة في أجسادهن، تلك التي سهر الليالي على انبثاقها جميلة، متناسقة، بديعة المثّال البصريّ العُمر، في استحضار متأخر لرحلات السندباد البحري ومغامراته في الجز الخرافية البعيدة.

لكن السيقان الجميلة تلك، والصدور الناتئة، الناهدة سحرا وعذرية، ظلت تستفز مشاعر الشباب المتحمس من المتدينين الجدد، الذين قدموا المدينة من ثلمة في تاريخها، حتى تقدم نفر منهم، وفي حياء شبقي تطوعوا على (سترهن) بما يشبه المآزر، طوقوا حوريات النصب، نساء النصب الخرافيات بقماش اسود، انسجاما مع مناخ الحزن العاشورائي، الذي بدأت تفرضه الحياة العامة، في المدينة التي طالت أشهرها الحرم، في صدى غير متناغم مع الشعار الذي رفعته ثورة الشرق الاسلامية في طهران.

منذ اليوم ذاك، صارت المدينة تصرخ: كل أرض كربلاء وكل يوم

عاشوراء، الصراخ هذا جاء منسجما مع المناسبات الحزينة الكثيرة للفقراء الذين فرحوا بسقوط التمثال، في بغداد، فراحوا يبكون ماضي أئمتهم في كربلاء والنجف والكاظمية، لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين، وعلى تعاقبهم الدموي أرّخوا تأريخهم بأن تركوا لهم في كل شهر إماما مقتولا، وفي كل مدينة ضريحا على نهر.



السندباد

لكن ناس البصرة، من الذين عاصروا زمنها البهي، حقبة الأربعينيات حتى نهاية السبعينيات من القرن الماضي، يتذكرون صور الفاتنات، من اللواتي كن يزيّن صالات التصوير في البصرة (فوتو ماتون، كارو، فينوس، آرام، ستراك، قاسم، الخلود، ذكريات...) حين كان المصور يقترح الصورة الجميلة، واللقطة الاستثنائية لعدسة كامرته ثم يستأذن الصَبيّة الفاتنة هذه أو تلك، بان تسمح له بتعليق صورتها في معرض الأستوديو، طمعا في جلب أكبر عدد من الزبائن، لأنها الأجمل عنده، ومن ثم لتتناغم مع صور الفاتنات، من ملهى ألف ليلة وليلة وشهرزاد والفارابي.. التي كان تضيء أنوارُها شارع الوطني، شارع الليل البصري الطويل .

وفي غمرة ما حدث ويحدث، نسي الناس صالات (سينما شط العرب

الصيفي بمقاعدها الخشب التي كانت تسمح بأن يطل على شاشتها راكبُ السيارة التورن، الذي يمر بالقرب من مبنى البريد القديم، أو سينما النصر التي تحولت الى كاليري لأحد الرسامين، ثم إنتهت دكانا لأحد النجارين اليوم، والتي يجاهد محمد الزبيدي، الفنان بإعادتها اليوم، أو سينما الرشيد، الوطني، الوطني الصيفي الواقعة في منتصف شارع الوطني، نفسه اليوم، البورت كلاب في المعقل، معقل مزهر الشاوي، الضابط المصلاوي الذي أنصف المدينة ولم تنصفه فيما بعد، سينما الحمراء، الحمراء الشتوي والصيفي، الكرنك، الرافدين...وغيرها حين كانت نساء بيوتات البصرة العريقة يسارعن لأخذ مقاعدهن أمام الشاشة الكبيرة، وسط احترام شباب المدينة، الأحترام لا يخلو، بكل تأكيد، من بعض الهمس والغزل البريئين.

ظلت السينما شاشة حياة رفيعة، تلهم سكان المدينة الحالمين طرقا حضرية لا حصر لها، قد لا يصدقها أحد اليوم، فما أن ينتهي عرض الفيلم، ويحل اليوم الثاني، ومع النسمات المسائية التي تلطفها سيارة البلدية، وهي ترش الأرصفة بالماء، المنزوع من المد، حتى يفاجأ الشباب بالتقليد السريع لفساتين الممثلة بطلة فيلم البارحة، بنات البصرة الجميلات يذهبن مسرعات لخياطهن، يطلبن منه، يتوسلن إليه بحق الشباب والفتنة والجمال ان يخيط فساتينهن كما رأينها على بطلة فيلم البارحة، وفي غضون ساعات قليلة، تعاد صورة صوفيا لورين، أودي هيبورن، مار لين مونرو، سليفيا كرستيل.. ليستمتع المتنزهون على الأرصفة الندية بنسخة بصرية من الفيلم، ها هن يتجولن على الساحل الأخضر لشط العرب، الكورنيش، قرب مبرة البهجة، في الخورة، أمام روضة راهبات التقدمة، وفي المعقل بحدائق الأندلس.. في مهرجان فرح ظل يتكرر كل ليلة.

زمن طويل يمر، والمدينة تبحث في أدراج استوديوهات مصوري ذاك الزمان عن صور الفاتنات اللواتي دخلن نفق الذكريات باكرا، تحن لأفلام

عاملي الرتوش، أقلامهم النحيفة والمبراة جيدا، تلك التي كانت تسطر الجمال في العتمات، في جوف الكيس السري الطويل الخلّاق، تبكي الأصابع الصماء التي كانت تعبث بالصورعميقا، هناك، في الظلمة الخالصة، الأظافر المطلية بالأسود السحري، والعين المقلوبة، على اللوح الندي.. ترى كيف كان ينظر هؤلاء لأساطير الحسن الجنوبي داخل الغرف المظلمة تلك؟وكم من الزمن مر، وهم يجاهدون كي يعيدوا رسم العين والأنف والشفة وتسريحة الشعر على هيئة الممثلة هذه أو تلك؟ وكم سينقضي من الزمن ليشهد حائط ما، في صالة ما، صورة أمتزج الواقعي فيها بالخيالي، الصورة التي سيُجبرُ المصورُ نفسَه فيما بعد على انتزاعها من الحائط ذاته، في حمّى التشدد الديني الذي أفرط في التعامل مع مشاهد الجمال.

تنكسر أقلام الرتوش النحيلة، وتجف أحبار التلوين، وينهزم حشد الممثلين، هذه المدينة تبكي اليوم مشطا على مرآة احتشدت بآلاف الصور، المشط يسرح الشعر، نازلا بحر المرآة، البحر لجة الجسد الفتي، في استوديو بشارع الوطني، تبكي الأصابع التي اجتهدت، تخط حذرة، بطيئة، بأحمر وردي فاقع شفاه صبيّة لا زال ينع التخرج في وجنتيها، على المرآة، التي تزدحم ساعة الظهيرة، لا زال المصور الأرمني يبحث في أدراج ماضيه عن فاتنته التي أمضه الليل وهو يلون بالقلم الرصاص خصلات شعرها الذهبي، ها هي تقف أمامه، حمالة صدرها عاطلة أعلى الرف، طيّات فساتنها غير ممسوقة عند البطن، لكن وقوفها يطول ويطول.

ترى ما ذا يفعل المصور اليوم؟ وقد انزل من حيطان صالتة صور حسناواته كلها، أو أخفاها في الغرفة المظلمة حيث لا أحد يرى، ليعلق مكانها رسوما لطواطم ميتة في ضمير الزمن، بعيون شبه برئية، وبوجنات لا تخلو من مكر، وأثواب تذكر بالصحارى والأودية الضمأى، كالحة مثل

قصيدة جاهلي مات مسموما، أسماء تذكر بالسحالي لكنها بأصابع تتوعد.

كانت المآزر السود التي طوق بها الشباب المندفع منحوتات قيس العمر وشهرزاداته المسحورات في ساحة الطيران صفارة إنذار كبيرة سرعان ما زحفت على محلات بيع الأشرطة الصوتية في شوارع الكويت وسوق حنا الشيخ وسوق المغايّز، ومثلما انزل المصورون صور حسناوات شارع الوطني أنزل هؤلاء صور أم كلثوم. ونجاة الصغيرة وشادية وسليمة مراد وما ئدة نزهت وعبد الحليم حافظ... لتختفي والى الأبد صور أجمل صور ذاك الزمان، ومعها فساتين وتسريحات العصر الذهبي، لمدينة ظلت تفقد صورها، ونفقدها شيئا فشيئا.

هكذا باع مالكو دور السينما النسخ الفريدة ومعها مانشيتات أجمل الأفلام الرومانسية، واحرقوا بالنار أجمل الأحلام التي كانت تضيء شاشات العرض في سينما أطلس والحمراء والكرنك والوطني وغر ناطة وغيرها.. فالتهمت النار شفاه بريجيت باردو وخصر أودي هيبورن وشعر ميريل ستريب وعيون بروك شيلز وغيرهن من نجوم السينما.. حتى أغلقت، وإلى الأبد، دورُ العرض السينمائي، ولتظل اليافطة السوداء، على بوابة سينما الرشيد، في شارع الوطني شاهدةً على عصر انهيار كبير.

(نعتذر عن عرض الأفلام الرومانسية)

فهرست

يُطلق الخصيبيّون (سكان أبي الخصيب في البصرة) كلمة باب على الأرض المحصورة بين نهرين، وما أكثرها في بلدتهم، فيما يطلق عليها، أهلُ الفاو، سكان أقصى الجنوب مفردة (حوز)، التي يجمعونها (أحواز)، والتي منها الأهواز، الإقليم العربي في إيران، ويَجمعُ أهلُ أبي الخصيب مفردة باب جمعا مختلفاً عن جموع غيرهم، فهم يقولون (بيبان)، على خلاف القاعدة اللغوية، (باب - أبواب)، كأنهم يشيرون في ذلك إلى كثرتها عندهم، أو هي الأيسر بأفواههم في اللفظ، كما يقول أحد رواتهم، لكن المكان المحصور بين النخل والماء والبر مفتوح على الجهات كلها هنا، فلِمَ الأبواب- البيبان، ألأن الماء يخربها، أم لأنها تخرب الماء؟

مطبعة



أربيل - كردستان
Aras Press
Kurdistan - Erbil



السعر ٢٠٠٠ دينار